الهمزية في مدح خير البرية

وقد جاءت هذه القصيدة بعد "بردة المديح".

وهي كالبردة في دقة معانيها، ورقة مبانيها، ورفعة أسلُوبِها، مع تَنوُّع أغراضها، وبينما وقعت "البردةُ" في ١٦٠ بيتًا، فإنَّ "الهمزية" وقعت في ٤٥٦ بيتًا"..

وتناولت الهمزية الموضوعات الآتية:

١- الافتتاح، في ٨ أبيات.

٢- ميلادُه ﷺ، في ١٩ بيتًا.

٣- الرضاعة، في ٩ أبيات.

٤- إتيان حليمة جدّه، في ٩ أبيات.

٥- البعث، في ٣ أبيات.

٦- زواجه ﷺ بخديجة، في ٨ أبيات.

٧- الدّعوة وإيذاء الكفار إياه ﷺ، في ١٥ بيتًا.

٨- هجرتُه ﷺ، في ٤ أبيات.

٩- إسراؤه ﷺ، في ٥ أبيات.

١٠- أعماله ﷺ بعد الإسراء، في ١٠ أبيات.

١١- الخمسة الذين بالغوا في الاستهزاء به ﷺ، في ٧ أبيات.

١٢- الخمسة الكرام، في ٧ أبيات.

١٣- أسْوَته ﷺ بالأنبياء قبله، في ٣ أبيات.

١٤- من معجزاته ﷺ[1]، في ١٣ بيتًا.

obeikandl.com

١٥- شمائله ﷺ، في ٢٥ بيتًا.

١٦- من معجزاته ﷺ[٢]، في ١٠ أبيات.

١٧- تمني البوصيري رؤية وجهه ﷺ، في ١٠ أبيات.

١٨- تمني البوصيري تقبيل رائحته الكريمة، في ١٣ بيتًا.

١٩- تمني البوصيري تقبيل التراب من قدمِهِ ﷺ، في ٧ أبيات.

٢٠- مَنْ شاهدوا معجزاته ﷺ وازدادوا ضَلالاً، في ٣ أبيات.

٢١- وَصْف القرآن الكريم، في ١٣ بيتًا.

٢٢- الاحتجاج على اليهودِ والنصارى، في ٦٨ بيْتًا.

٢٣- فتْحُ مكة والعفو عن أهلها، في ١٦ بيْتًا.

٢٤- حج البوصيري وزيارته قبر المصطفى ﷺ من مصر، في ٤٤ بيْتًا.

٢٥- مدحُهُ ﷺ والتماسُ شفاعته، في ١٣١ بيْتًا.

obeikandl.com

١ - الافتتاح

(١) كيفَ ترقى رُقيَّك الأنبياءُ يا سَمَاءً ما طاولَتْهَا سَمَاءُ

نَفى مساواة الأنبياء للنّبي مُحمد ﷺ في الرقي الحسيِّ، والرُّقي المعنوي، مع نَفْي زيادة أحدهم عليه. والمُراد بالرُّقي الحسِّي، ترقيه ﷺ ليلة الإسراء من بيت المقدس إلى السموات السَّبع، إلى حيثُ شَاءَ الله، والمُراد بالرُّقي المعنَوي، تنقله ﷺ من كل صفةِ كمالٍ إلى أكملَ منها.

(٢) لَمْ يُساوُوكَ في عُلاكَ وقد حا لَ سَنىً منْكَ دُونَهُم وَسَنَاءُ

يقول هُنَا: لقد انتفتْ مساواتُهُم لَكَ، وذلك لمانع منَعهم من اللحاق بِكَ، وهو ذلك النُّور الذي اختُصصتَ بِهِ، وتلك الرفعة، اللذيْن لم يصلْ أَحَد إليهما.

(٣) إنَّما مَثَّلُوا صفاتكَ للنَّا سِ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ المَاءُ

إنَّ الذينَ وصفُوكَ عَجزوا أنْ يُصوُروا صفاتك للنَّاسِ تصويرًا حقيقيًا، وغايةُ ما سَمَتْ إليه مداركُهُم، أنْ صورُوها لهم تصوير الماءِ للنجومِ.

(٤) أَنْتَ مصباحُ كُل فَضْلٍ فَمَا تَصْـ ـدُرُ إلاَّ عَنْ ضَوْئكَ الأَضْواءُ

وما أنتَ في انبعاث كل كمالٍ وشرفٍ منْك، إلاَّ كالمصباح الذي لا تصدُرُ الأضواءُ إلاَّ عنه، فإنْ قُلْت: إنَّه ﷺ أقوى من كل نورٍ، وشرْطُ المُشبه بِهِ أقوى من

المشبه؟ فالإجابة بأن نور السراج لما كان محبوسًا يُدرَكُ بالبصر، ونوره ﷺ معنوي يُدرك بالبصائر، كان المشبه به أقوى بهذا الاعتبار، أو يُقالُ إنَّهُ من التشبيه المقلُوب.

(٥) لَكَ ذَاتُ العُلُومِ مِنْ عَالَمِ الغَيْـ ـبِ وَمِنْهَا لآدمَ الأَسْمَاءُ

وإنَّ بينكَ وبينَ آدَمَ تفاضُلاً، فقد علَّمكَ الله تعالى نفس العُلُومِ، بوساطة المَلَكِ، أو بالإلقاءِ في الرَّوْعِ "في القلب"، أو بِخَلْقِ العلمِ الضروري، أو بسماعِ النفس الكلام، حالة كونها من جملة العالم، الذي غاب عن المشاهدة، وعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ دُونَ المُسميَّاتِ، وهو المُتبادَر من الآية، ويُقابِلُ هذا الرَّأي رأيان آخرانِ، لا يتفقانِ معه.

(٦) لَمْ تَزَلْ فِي ضَمائرِ الكونِ تُخْتا رُ لَكَ الأمهاتُ والآباءُ

وكما طابتْ ذاتُكَ مما أوتيت من الكمال الأعلى، كذلك طَابَ نَسَبُك، فلم يكُن في أمهاتك من لَدُن حَواءَ إلى أُمكَ آمنة، ولاَ في آبائكَ من لَدُن آدَمَ إلى أبيك عبد الله، إلا مَنْ هو مصطفى مختارٌ.

(٧) مَا مَضَتْ فترةٌ من الرُّسُلِ إلاَّ بشَّرَتْ قَومَهَا بِكَ الأنبياءُ

وما مضى زَمَنٌ خالٍ من الرُّسل، نُسى فيه ذكرُكَ، إلاَّ جدَّدتُهُ الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٨١].

قال ابنَ عباسٍ: "إنَّه تعالى أخَذَ على كل نَبي بعثَهُ من لَدُنِ آدَمَ، أنّ مَنْ أدرك محمدًا ﷺ وهو حي، ليؤمنُنَ بِهِ ولينُصرَنَّهُ".

(٨) تَتَبَاهى بِكَ العُصُورُ وتسْمُو بِكَ عَلْيَاءُ بعدَها عَلْيَاءُ

إن العصور السابقة، والعصور اللاحقة على حد سواء، تتفاخرُ بك يا مُحمدُ، كما تتشرَّفُ أيضًا المراتبُ العلية بشَرَفك.

obeikandl.com

٢- ميلادُهُ ﷺ

(٩) وبَـدَا للوُجُـودِ مِنْـكَ كَـرِيمٌ مِـنْ كـريم آبـاؤه كُرَمَـاءُ

إنَّهُ لكمالِ المصطفى ﷺ في صفة الكرم، صَح أنْ يُنتزَعَ ويُستخلَصَ منْهُ شخصٌ كريمٌ، مُبالغة في صفة كرمِهِ وكمالِهِ فيه، وهذا الكريمُ المُنتزع متولدٌ من كريم، والمُرادُ بِهِ أَبُوهُ وأُمُّهُ، وفي قوله: (آباؤهُ كُرماء) صفة الكريم الثَّاني، وفي ذكر (آباء) تغليبٌ للذكُورِ على الإناثِ لشرفهم، ومعنى ذلك أنهمُ متصفُونَ بصفاتِ الكمالِ، سَالمُونَ من صفاتِ الجاهليَّة.

(١٠) نَسَـبٌ تَحسِـبُ العُـلاَ بِحُـلاَهُ قلَّـدتْهَا نُجُومَهَـا الجَـوْزَاءُ

يا لَهُ من نسب عظيم، تعتقدُ أيُّها المَخاطبُ أن المراتب الشريفة قلدتْها الجوزاءُ بِنُجومها، بسببِ ما تحلتْ بِهِ من محاسن أولئك الأفراد، الذينَ تكوَّنَ منهم ذلك النَّسب الرفيع، أي أن المراتبَ الشريفة تشرفت بشرفِ آبائه الكَرماء، حتى كأنَّها تقلَّدتْ بنجومِ الجوزاء.

(١١) حَبـذَا عِقْـدُ سُـؤدُدٍ وفَخَـارٍ أنْـتَ فيـه اليتيمـةُ العَصْـمَاءُ

فحبذا نسبُك الذي إذا ذُكرْتَ وعُدَّ معكَ آباؤُكَ، كَانُوا قلادةً منتظمة، من جواهِرَ ثمينة لها السِّيادة والفَخَارُ، على جميع الجواهر، وكنت أنت أجدرَهَا وأنفسها وأحقها بالرعاية والحفظ، ببلوغها ما يفوقُ الوصف من صفاتِ الجمالِ ونُعُوتِ الجلاَلِ.

(١٢) وَمُحَيا كالشَّمْسِ منْكَ مُضيءٌ أسْفَرتْ عنْهُ ليلَةٌ غَرَّاءُ

وحبذا وجهكَ المُضيء كالشمس، الذي انكشفت عنه الليلةُ التي استنارتْ بِنورِكَ، فكانت غُرَّةً في وجه الدَّهر، هي ليلةُ ولادتَكِ.

(١٣) ليلةُ المَوْلِدِ الذي كَانَ للدِّ ينِ سُرُورٌ بيومِهِ وازدِهَاءُ

وأنت أشرفُ مولُودٍ، فلذلك سُرَّ الدينُ وأهلُهُ، باليوم الذي برزْتَ فيه إلى هذا الوُجود، وقد وُلد ﷺ بُعيدَ الفجر يوم الاثنين اتفاقا، والأصَح أنه في شهر ربيع الأوَّل لثنتي عشرة، وهو المشهورُ، وعليه العملُ.

(١٤) وتَولَدتْ بُشرى الهواتِفِ أنْ قَدْ وُلِدَ المصطفى وحُقَّ الهَنَاءُ

أشرقتْ أنوارُه ﷺ، فتتابعتْ بشائرُ الهاتفين بولادته، وثبت السُّرورُ بطلعته.

(١٥) وتَدَاعى إيوانُ كسْرى ولَوْلا آيةٌ مِنْكَ مَا تَدَاعى البِنَاءُ

وأشرفَ على السُّقُوطِ إيوانُ كسرى، ولَوْلا علامةٌ عظيمةٌ على نُبوتك، ما تداعى ذلك المبْنى، مع ما هو عليه من الإحكامِ، ولما انشق وسقطتْ شُرُفاتُهُ، سقطَ منْهُ أربع عشرة شُرفة.

(١٦) وَغَدَا كُلُّ بَيْتِ نَارٍ وفيه كُربةٌ مِنْ خُمُودِهَا وَبَلاَءُ

وصَارَ كُلُّ بيتٍ من بيُوتِ نَارِ فارس – التي كانُوا يعبُدونَها ويوقدُونَها ألْفَ سنَةٍ لم

يُطفأ لها لهبٌ لأنهَّمُ كانُوا مجُوسًا – والحالُ أنَّ فيه غمًّا وبَلاَءَ لخمودِ تلك النيران العظيمة، وقد أدركوا أن ذلك لأمرٍ عظيم، حدث في العالم.

(١٧) وعُيُونٌ للفُرْسِ غَارتْ فَهَلْ كَا نَ لنـــيُرانِهِمْ بِهَـــا إطفـــاءُ

ومن العجائبِ التي ظهرتْ في تلك اللَّيلة جَفَافُ عيُونِ الفُرسِ.

كأنَّ بالنـارِ مـا بالمـاءِ مـن بَلَـلٍ حُزْنَا وبالماءِ مـا بالنـارِ مـن ضرَمِ

(١٨) مولدٌ كانَ منْهُ في طـالعِ الكُفْـ ـــر وَبَـالٌ عَلْـيهمُ وَوَبَـاءُ

من أجْل هذا المولد ظهرتْ أدلَّةٌ شتى للكفار المعلومين من السياقِ، على ما جلَّ بهم من الهم والغَم والمرضِ العام.

(١٩) فَهَنيئًـا بِـهِ لآمنـةَ الفَضْـلُ الـذي شُرِّفَـتْ بِـهِ حَـوَّاءُ

وبذلك ثبت الفَضْل لآمنةَ، فقد امتازت آمنةُ بإبرازه ﷺ إلى عالم الاستقلال بلا وساطة، وأن حواءَ امتازتْ بإبرازه إلى عَالَمِ الأصْلاَبِ، أي أن آمنة فازَتْ بِشَرَفِ الانتهاء، وهو أفضَلُ ممَّا فازَتْ بِهِ حَواءُ من شرفِ الابتداء.

(٢٠) مَـنْ لِحَـوَّاءَ أنَهـا حَمَلَـتْ أحْمَـ ـــدَ أَوْ أَنَّهـا بِـهِ نُفَسَـاءُ

مَنْ يُثبتُ لِحَواءَ أنَّها حملت أَحْمَدَ، أو أنَّها بِه نُفساءُ.

(٢١) يَوْمَ نَالَتْ بِوَضْعِهِ ابنَةُ وَهْبٍ مِنْ فَخَارٍ لَمْ تَنَلْهُ النِّسَاءُ

يوم فازَتْ آمنةُ بما لم تفُز به النساءُ من الفخارِ حتى حواءُ، وهذا لا يقتضي أفضلية آمنة على حواء مطلقًا، لأنها إنما فضلتها من وجْهٍ واحدٍ، وقد انعقد الإجماعُ على أنَّ حَوَّاءَ أفضَلُ منها.

(٢٢) وأَتَتْ قومَهَا بأفْضَلَ مِمَّا حَمَلَتْ قَبْلُ مَرْيَمُ العَذْرَاءُ

جاءتْ آمنةُ قومها به ﷺ، وهو أفضَلُ من عيسى عليه السلام الذي ولدتْهُ مريمُ ابنة عمران.

(٢٣) شَمَّتَتْهُ الأمَلاَكُ إذْ وَضَعتْهُ وَشَفَتْنا بِقَوْلِهَا الشِّفَاءُ

فشمتته الملائكةُ حين وضعتْه، وسرَّتنا بقولها الشفاءُ، وهي أمُ عبد الرحمن بن عوف"، والمرادُ بِهِ ماُروي عن ولدها أنَّها قالتْ: "لَّما ولدتْ آمنة رَسولَ الله ﷺ وقع على يديّ، فاستهلَّ، فسمعتُ قائلاً يقُولُ: "رحمك الله ورحم بك" وأضَاءَ لي ما بين المشرق والمغربِ حتى نظرتُ إلى قُصُور الروم، ثُمَّ ألبسته وأضجعته، فَلَمْ ألبث أن تغشتني ظلمة ورُعْبٌ وقشعريرة، ثُمَّ غُيب عني، فسمعتُ قائلاً يقولُ: أين ذهبتَ به؟ قال: إلى المشرق، قالت: فلم يزل الحديث مني على بالٍ حتى بعثه الله تعالى، فكنُتُ في أوَّلِ الناسِ إسلامًا".

(٢٤) رافعًا رأسَهُ وفي ذلك الرَّفْـ ـعِ إلى كُلِ سُؤْدُدٍ إيمَاءُ

بَرَزَ ﷺ إلى هذا الوُجُودِ فرفع رأسه، وفي هذا الرَّفع – وهو أولُ فعلٍ وقع منه ﷺ- إيماءٌ وإشارةٌ إلى كل رفعةٍ وسيادة.

(٢٥) رامقًا طرْفُهُ السَّماءَ ومرَمَى عَيْنِ مَنْ شَأْنُهُ العُلُو العَلاءُ

وكما أنَّ في رفع رأسه إيماءٌ وإشارةٌ إلى ما ذُكر، كذلك كان رمق بصره إلى جهة العُلو، إيماءً إلى أنه لا يقصد إلا أعلى المراتب، فمن شأنه العُلُو، لا يقصدُ إلا جهاتِهِ.

(٢٦) وتَدَلَّتْ زُهْرُ النُّجُومِ إليْهِ فأضَاءتْ بِضَوْئها الأرْجَاءُ

وقد دنتْ الكواكبُ المضيئة يومَ مَوْلِدِه فأضاءَتْ بأضوائها النواحي، نواحي البيت الذي وُلِدَ فيه، أو نَواحي السَّماءِ، أو نواحي الكَوْنِ.

(٢٧) وتَرْاءَتْ قُصُورُ قيصَرَ بِالرُّو مِ يَرَاهَا مَنْ دارةُ البَطْحاءُ

رُوي أن أمَّهُ ﷺ رَأتْ حين وضعته نُورًا ظهرتْ بِهِ قُصُورُ الشامِ فَرَأتْها وهي في مكة.

٣- الرَّضَاعــةُ

(٢٨) وَبَـدَتْ في رَضَـاعِهِ مُعجِـزاتٌ لَـيْسَ فيهَـا عَـنِ العُيُـونِ خَفَـاءُ

لقد ظهرت في زمان رضاعِهِ ﷺ أشياءٌ شبيهةٌ بالمعجزات لا يُستطاعُ إخفاؤها وكتمانُها عن الأبصارِ.

(٢٩) إذْ أَبَتْــهُ لِيُتْمــه مُرْضِــعَاتٌ قُلْــنَ مــا في اليتــيمِ عَنَّــا غَنَــاءُ

لقد أعرضَتْ عنه المرضعات ليُتمهِ، وقلن: إنا تركناهُ لأننا إنما نبغي الرُّضعَاءَ رَجَاءَ المعروفِ من آبائهم، فأما الأم والجد فليسا بذاك.

(٣٠) فأَتَتْــهُ مِــنْ آلِ سَــعْدٍ فَتَــاةٌ قَــدْ أَبَتْهَــا لِفَقْرِهَــا الرُّضَــعَاءُ

فأتتْهُ حليمة السعدية، وهي شابةٌ كريمة، واسمُها من الفألِ الحَسَنِ، والبشارةِ العظيمة، ما لا يخفى، فامتنع أهلُ الرضعاءِ أن يعطوها أحدًا من رُضعائهم، لأن الفقر يستلزمُ قلة الأكل، التي تستلزم قلَّة اللَّبنِ المُضرةِ بالرَّضيعِ عَادَةً.

(٣١) أَرْضَــعَتْهُ لِبَانَهَــا فَسَــقَتْهَا وَبَنِيهَــا أَلْبَــانَهُنَّ الشَّــاءُ

لقد أرضعت حليمة السَّعدية النبي ﷺ لبانها، فبسببِ هذا الإرضاع لهذا المولُودِ السَّعيد، سقتْها الشياهُ وبنيها ألبانَها، وكانُوا قد أشرفُوا على الهَلاَكِ من الجُوعِ، لأن أرضهُم كانت في غاية الجَدْبِ.

(٣٢) أصبحَتْ شُوَّلاً عِجَافًا وأَمْسَتْ ما بِهَا شَائِلٌ وَلاَ عَجْفَاءُ

هذه الشياهُ كانت شُولاً لاَ لبن فيها أصلاً، وكانت هزيلاتٍ، فاستحالت حالُها ببركته ﷺ في أقربِ وقْتٍ، وما فيها هزيلةٌ ولا ضعيفة.

(٣٣) أَخْصَبَ العَيْشُ عِنْدَهَا بَعْدَ مَحْلٍ إِذْ غَدَا للنَّبِي مِنْهَا غِذَاءُ

كَثُرَ قُوتُ الآدميينَ والدَّوابُ عند حليمة، بعد أن يبست الأرضُ من الكلأ والزرع، وذلك بسببِ أن تغذى النبي ﷺ بلبنها.

(٣٤) يَالَهَا مِنَّةً لقد ضُوعفَ الأجْـ ـرُ عَلَيها مِنَ جِنْسِهَا والجَزَاءُ

إنها منةٌ عظيمة كوفئت عليها حليمة السعدية من جنسها، فقد أرضعته ﷺ، فتوالى عليها لبنُ ماشيتها المُبين، في قولِهِ: "فسقتها وبنيها ألبانهُن الشَّاءُ" أنْ الجزَاءَ من جنس العمل.

(٣٥) وَإِذَا سَخَّرَ الإلـه أُنَاسًا لِسَعِيدٍ فَإِنَّهُمْ سُعَدَاءُ

إنَّ الله تعالى إذا وفَّق قومًا لخدمة سعيد، كانُوا من السُّعداء، لأنَّ بركة ذلك السَّعيدِ تعودُ عليهم، فيكونونَ من سُعَداءِ الدُّنيا والآخرة، ولأن "المَرْءَ مع مَنْ يُحب من الأكابِرِ، وإن لم يعمل بعملهم" – كما في الحديث – ومِنْ أعظم ما سعدتْ بِهِ حليمة توفيقها للإسلام، هي وزوجها وبنُوها.

(٣٦) حَبَّـةٌ أنبتَـتْ سَـنَابِلَ والعَصْـ ـفُ لديـه يستشـرفُ الضُّـعفَاءُ

جُعلتْ تلك المُضاعفةُ الكثيرةُ في تلك السَّنابل، والحالُ أنَّ الوقت وقْتُ عَدَمِ إنباتٍ بالكلية، بحيث أنَّ الفقراءَ يتطلّعونَ إلى وَرَقِ النباتِ، فَضْلاً عن النَبات، فضلاً عن الحب، كما أن حليمة حَصَل لَها ذلك الخصب واللبن، والحالُ أنْ قومها يتطلعون إلى ورقةٍ أو حِبةٍ أو قطرة لبن، فلا يجدونَهُ.

obeikandl.com

٤- إتيانُ حليمة جده

(٣٧) وأَتَتْ جَدَّهُ وقَدْ فَصَلَتْهُ وَبِهَا مِن فِصَالِهِ البرحَاءُ

أتت به حليمة جدَّه عبدَ المطلب بعد أن فطمته وانتهت مُدةُ رَضاعِهِ، لبلُوغِهِ سنتين، وقد لحق بحليمة من أجل فطامِهِ التألم الشديد، لِما شاهدتْ من توالي الخيراتِ وتتابع البركات بسبب إقامته عندها.

(٣٨) إذْ أحَاطَتْ بِهِ ملائكة الله فظنَّتْ بِأَنَّهُمْ قُرَنَاءُ

لقد أتتْ بِهِ وقتَ أنْ أحدقتْ بِهِ ملائكة الله، لأجل شق قلبه فخافت عليه وأسرعت بِهِ إلى جَدهِ لأنها ظَنتْ أنهم شياطين يريدُونَ إيذاءَه.

(٣٩) وَرَأى وجْدَهَا بِهِ وَمِنَ الوَجْـ ـدِ لَهِيبٌ تُصْلى بِهِ الأَحشَاءُ

رَأى جَدُّه شدَّةَ تعلقها بِهِ، وقد يتولدُ عن ذلك نارٌ، تحرق بها الأحشاءُ.

(٤٠) فَارَقَتْهُ كُرْهًا وَكَانَ لَدَيْهَا ثَاوِيًا لا يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

لقد فارقته حليمة كارهة لذلك، وكان عندها مُقيمًا لا تملُ إقامته، لما يترتب عليها من الإحسانِ الواسعِ، المجبولة على حُبه النفوسُ.

لقد أتت به حليمة جدّه مرتين:

الأولى: عند استكماله سنتين فقط، فأرجعه إليها لشفقته عليها، لِما رأى من شدة تأثرها لفواته، ولخوفه عليه من الوباءِ، الذي كان منتشرًا بمكة إذْ ذاك.

والثانية: عند استكمالِهِ سنتين وشهرين، لخوفها عليه من الجن "بحسب زَعْمها" لما جاءَته الملائكة لشق صَدْرِه، فردته على جَدَّهِ، فأبقاهُ عندهُ، ولم يردَّه عليها، ففارقته كُرْهًا.

(٤١) شُـقَّ عَـنْ قَلْبِـهِ وَأُخْـرِجَ مِنْـهُ مُضْـغَةً عِنْـدَ غَسْـلِهِ سَـوْدَاءُ

هذا البيتُ يتضمنُ قصَّة شق صدرِهِ ﷺ، وقد وقع الشقُّ أرْبع مراتٍ:

الأولى : عند مُضي سنتين وشهرين.

والثانية: عند استكمال عشر سنين.

والثالثة: عند مجيء الوحي له بالنبَّوة وهو في غارِ حِراء.

والرابعة: عند الإسراء بِهِ من مكة إلى بيت المقدس.

أي شقت الملائكة قلبه، وأخرجُوا منْهُ قطعة لَحْم سوْداء.

(٤٢) خَتمتْـهُ يُمنـى الأمِـين وقَـدْ أُو دِعَ مَـا لَمْ تُـذَعْ لَـهُ أنْبـاءُ

يعودُ الضميرُ في "ختمته" إلى الشق المفهُوم من قوله "شق عن قلبِهِ"، والأمين هو جبريل عليه السلام، لأنَّه أمينٌ على كُتُب الله ووحيه، الذي لم تذعْهُ وتنشرُهُ أخبارٌ، لأنَّهُ لا يعلمه إلاَّ الله تعالى.

(٤٣) صَانَ أَسْرارَهُ الختامُ فَلاَ الْفَـ ـضُّ مُلِمٌّ بِهِ وَلاَ الإِفْضَاءُ

حفظ أسرار قلبه الخَتْم الذي أحدثه جبريلُ، فلم يعتوره كَسْر وَلاَ إشاعة.

(٤٤) أَلِفَ النُّسْكَ والعبادةَ والخَلْـ ـوَةَ طِفْلاً وهكذا النُّجباءُ

كانَ في طفولته مُعتادًا العبادة والابتعاد عن الناسِ، وهذا شأنُ الكرام الذينَ لا يألفون إلا ما يُناسبُ كرمَهُم.

(٤٥) وَإِذَا حَلَّتْ الهدَايةُ قَلْبًا نَشطَتْ في العبادةِ الأعضَاءُ

هكذا كَانَ شأنَ النُّجباءِ من الأنبياءِ، فقد وَصَلوا إلى الحق، فنشطت في العبادةِ أعضاؤُهم، لأن القلب رئيس البدن، المُعول عليه في صلاحِهِ وفسادِه.

٥ - البَعْثُ

(٤٦) بَعَثَ اللهُ عِنْدَ مبعثِهِ الشُّهْبَ حِرَاسًا وَضَاقَ عنْها الفَضَاءُ

عندما جاء موعدُ بعثته ﷺ، حُرِمَ ومُنع عن الشياطين استراق السَّمع أو تخيله، وقيضَ حُراسا في السماءِ على غير قياسٍ، تمنعهُم.

(٤٧) تَطرُدُ الجِن عَنْ مقَاعِدَ للسَّمْعِ كَمَا تطردُ الذِّئَابَ الرِّعَاءُ

قالَ الله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ ﴾ (الجن: ٨) إلى قوله ﴿ رَشَدًا ﴾.

وحديث ابنُ عباس رضي الله عنهما: "إن الشياطين كانُوا محجوبين عن السموات، فكانوا يدخلونها ويستقون منها الأخبار ويُلقُونها إلى الكهنة، وبولادة عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سمواتٍ، وبولادته ﷺ مُنِعوا من السموات كُلها".

ومعنى ذلك أن الرجم كان قبلَهُ ﷺ، وأنَّهُ أصبح بعد بعثته شديدًا.

(٤٨) فمَحتْ آيةَ الكهَانَةِ آيا تٌ مِنَ الوَحْي ما لهنْ انْمَحَاءُ

لقد أَزَال الوَحْيُ الكهانة، التي كان سببُها ما تُلقيه الشياطين إلى علماءِ اليهُودِ، ورُهبانِ النصارى من أخبارِ السمواتِ الصَّادقة، التي كانوا يسترقونها قبل منعهم.

والوحي كان له ﷺ بالرُّؤيا الصادقة، أو ما يُلقيه المَلَكُ في روعِهِ "أي في قلبه" من غير أنْ يراهُ، أو يتمثلُ المَلَكُ لهُ رَجُلاً يُخاطبُهُ أو بغير ذلك.

٦- زواجه ﷺ بالسيدة خديجة

(٤٩) وَرَأَتْـهُ خَدِيجَـةُ والتُّقـى والـز هْـدُ فيـه سَـجِيَّةٌ والحَيَـاءُ

علمت بِهِ خديجة بنتُ خويلدٍ، وكانتْ ذَاتَ شرفٍ ظاهرٍ، ومالٍ وَافرٍ، وحسبٍ فاخرٍ، وعلمتْ فيه ﷺ التقى، وهو البراءة من كل شيء سوى الله تعالى، وهذا غايته، والتقى خلقٌ غريزي فيه، أما الحياءُ فهو خُلُقٌ عندهُ، يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في الحقُوق.

(٥٠) وَأَتَاهـا أنْ الغَمامـةَ والسَّـرْحَ أظَلَّتْـهُ مِـنْهُمَا أَفْيَـاءُ

وعلمت خديجة أَمر الغمامة التي كانت تظلله أَنَّى سارَ، والشجر الذي يعطي الفيء وهو فيما بعد الزوال، وهو الذي ينسخ الشمس وهو بخلاف الظل، فإنه ما قبل الزوال وما تنسخه الشمس.

(٥١) وأَحَاديثُ أن وَعْـدَ رسُـولِ اللهِ بِالبَعْـثِ حَـانَ مِنْـهُ الوَفَـاءُ

وقد دارت أحاديثُ بين الجميع بأن بعثهُ وإرسالهُ ﷺ، قد قرُب موعدُه وسيتمُ الوفاءُ بهذا الوعد في أقرب وقت.

(٥٢) فَدَعتْـهُ إلى الـزواجِ وَمَـا أَحْـ سَـنَ مـا يبلـغُ الـمُنى الأذكيـاءُ

خطبته خديجةُ وعَرَضتْ نَفْسَها عليه، وسنها أربعون سنة، وسنه خمس

وعشرون، فما أحسنَ ما يتمناه الإنسان، وإن خديجة لمن أكمل الأذكياء، فإنها أدركت بقوةِ ذكائها وتفرسها فيه ﷺ كُلَّ ما تمنتْهُ.

(٥٣) وأتـــاهُ في بيتَهـــا جَبْرَئيـــلُ وَلِـذِي اللُّـبِ في الأمـورِ ارتيـاءُ

وأتى جبريلُ عليه السلام النبي ﷺ، وإن لذي اللب العاقل المتبصر في الأمور كلها مالايُشتبه عليه ولا يختلط، والخلاصة أن الأمين جبريل جاءه ﷺ في بيت خديجة.

(٥٤) فأماطَت عَنْهَـا الخِـمارَ لتـدْري أهُـوَ الـوَحْيُ أَمْ هـو الإغْـماءُ

رفعت خديجة عن رأسها الخمارَ لكي تتبيَّنَ الأمر، هل هذا هو جبريل أمين الوحي حقًا، أم أنها مصابةٌ بالإغماءِ؟

(٥٥) فاختفَى عنْدَ كشْفِهَا الرأسَ جبريـ ـلُ فَـمَا عَـادَ أَوْ أُعيـدَ الغِطَـاءُ

فلما كشفت خديجة رأسها اختفى جبريل عليه السلام، ولم يعدُ للظهورِ إلا بعد أن أعادت غِطَاءَ رأسها.

(٥٦) فَاسـتَبَانَتْ خَديجـةُ أَنَّـهُ الكَنْـ ـزُ الـذِي حَاوَلَتْـه والكيميـاءُ

وقد تبينتْ خديجة أن النبي ﷺ كالكنز النفيس، فأرادت حيازته والظفر بِهِ، وكأنّهَ إكسير الحياة ورُوحها، هذا الذي كانت تبتغيه، وهو أيضًا الجوهرُ المكنُونُ الذي كانت ترتجيه.

٧- الدَّعوة وإيذاء الكفار إياه ﷺ.

(٥٧) ثُـمَّ قَـامَ النَّبـيُّ يـدْعوُ إلى الله وَفي الكُفْـر نِجْـدَةٌ وَإِبَـاءُ

ثُمَّ بعد تقرير النبوة، ونزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر ١-٢]، قام النبي ﷺ امتثالاً لما أُمر بِهِ، يدْعُو النّاسَ إلى عبادة الله وتوحيده، وترك عبادة الأصنَامِ، والحال أن في أهل الكُفر قوة تامة، وتعصّبًا عليه، وامتناعًا عن اتباعِهِ، ومع ذلك كان لا يخافُ في الله لومة لائم، وأول مَن أسْلم من النساءِ خديجة، ومن الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، ومن الصبيانِ علي بن أبي طالب، ومن الموالي زيْدُ بنُ حارثة، ومن الأرقاءِ بلال بن رباح المؤذن.

(٥٨) أُمَّـا أُشْرِبَـتْ قُلُـوبُهم الكُفْـ ـرَ فَـدَاءُ الضـلالِ فـيهم عَيـاءُ

أخَذَ النبي ﷺ يدْعُو أقوامًا تمكنَ منهم حب الكفر حتى صاروا لا يقبلونَ غيره، فأشبه الداءَ العضال، الذي لا يُرجى شفاؤه.

(٥٩) وَرَأَيْنَـا آياتِـهِ فاهتَـدَيْنَا وإذا الحَـقُّ جَـاءَ زَالَ المِـرَاءُ

وَصَلنا إلى المطلوب منا من كمال الإيمان، وتقرَّر الحقُ وثبت وزَالَ بذلك العِناد والجدال، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء: ٨١].

(٦٠) رَبِّ إنَّ الهُـدى هُـدَاكَ وآياتُـ ـكَ نُـورٌ تَهـدِي بِـهِ مَـنْ تَشَـاءُ

يارب إنَّ اتباع الحق، ليس إلا بتوفيقك وهدايتك، وإن آياتكَ التي أقَمْتَها دالةً على صِدْقِ أنبيائك، نورٌ تهدي بِهِ مَنْ تشاءُ.

(٦١) كَمْ رأيْنَا مَا ليس يعقِلُ قَـدْ أُلـ ـهِمَ مَـا لَـيْسَ يُلْهَـمُ العُقَـلاَءُ

كثيرًا ما رأينا غير العقلاءِ أدركَ، مالم يُدركْهُ العُقلاء.

(٦٢) إذْ أبى الفيلُ مَا أتَى صاحبُ الفيـ ـلِ ولَمْ يَنفَـعْ الحِجَـا وَالـذَّكَاءُ

امتنع الفيلُ غير العاقل أن يأتي ما عزَمَ عليه صاحبُه أبرهة الأشرم وهو عاقل، من هَدمِ الكعبة، ولم يردعْه عقله وذكاؤه، وقد أورد الله تعالى قصة الفيل في القرآن الكريم بأحلى بيان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝﴾ [الفيل].

(٦٣) وَالجَمَادَاتُ أفْصَحَتْ بِالذي أُخْـ ـرِسَ عنْـهُ لأَحْمَـدَ الفُصَـحَاءُ

أوردَ في هذا البيْت ما يتعلق بإلهام الجمادِ، بعد ما أورَدَ في البيت السَّابقِ ما يتعلَّقُ بإلهامِ الحيوانِ، أي أن الجمادات نطقتْ بِكَلاَمٍ فصيح للنبي ﷺ، أُخرِست الفُصَحاءُ عنْهُ، فمع كوْنِ العرب أرباب فصاحةٍ، امتنعت ألسنتهم عن النطق بالإيمان بِهِ، وشهد لهُ بذلك الجماداتُ الصُّمُّ بأفْصح لسانٍ وأبلغ بيان، فمن ذلك تسبيحُ الحصى في يده.

وصَح عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قوله: (كُنت أمشي مع النبي ﷺ في مكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فَما استقبلنا حَجرٌ ولا شجرٌ إلاّ قال: السلام عليكَ يا رَسولَ الله).

(٦٤) وَيْحَ قَوْمٍ جَفَوْا نَبِيًّا بِأَرْضٍ أَلِفَتْهُ ضِبَابُهَا والظِّبَاءُ

وَيل لهؤلاء الجافين له ﷺ، فقد وقعوا في التهلكة بسبب جفائهم ومُخالفتهم له، فقد أبغضوا من تألفت له، وأحبته الضبابُ والظباءُ.

(٦٥) وَسَلَوْهُ وَحَنَّ جِذْعٌ إِلَيهِ وَقَلَوْهُ وَوَدَّهُ الغُرَبَاءُ

لقد نفرت قلوبُ القوم منْهُ، وقد حَنَّ الجِذْعُ إليه، وكَرِهُوهُ، وقد أحبَّهُ البُعدَاءُ، الذين ليسُوا من عشيرته.

ومُلخص قصة حنين الجذع إليه ﷺ، أنه كان يخطب مُستندًا إلى جذع نخلة، فلما صُنع له المنبرُ، تخطى الجِذْعَ يوم الجمعة، ليخطُب على المنبرِ، فصَاحَ الجِذْعُ حتى سمعهُ جميعُ مَنْ في المسجد.

(٦٦) أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وآوَاهُ غَارٌ وَحَمَتْهُ حَمَامَةٌ وَرْقَاءُ

لقد أخرجُوهُ ﷺ، ولكنْ الله هيَّأ لهُ المأوى في غَارِ ثَور، ودفعت عنه بلاءَ المشركين حمامة، في لونها بياضٌ وسوادٌ.

(٦٧) وَكَفَتْهُ بِنَسْجِهَا عَنْكَبُوتٌ مَا كَفَتْهُ الحَمَامَةُ الحَصْدَاءُ

قامت العنكبوت، وهي دويبة لها أربعة أزواجٍ من الأرجل، تنسج نسيجًا رقيقًا مُهلهلاً تصيدُ به طعامها، كانت له كفاية من عند الله، أن تُرد من يُحاولُ دُخُولَ الغار، لأنها تُنبئ بعدم دُخولِ أحدٍ إلى الغار، كما وقتْهُ الحمامة الكثيرةُ الريش.

(٦٨) وَاخْتَفَى مِنْهُمْ عَلى قُرْبِ مَرْآ ... هُ وَمِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الخَفَاءُ

رُوي أن أبا بكر ﷺ لما رأى القافة "جمع قائف" اشتد حُزْنُهُ، وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل واحدٌ، وإن قُتلتَ أنتَ يا رسول الله، هلكت الأُمة، فقالَ له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة ٤٠] أي باللُّطفِ والمعُونة والنّصر ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي على أبي بكرٍ لأنهُ هو الذي انزعج ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ أي رسول الله ﷺ ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي ملائكة يصرفون أبصارَ الكُفارِ عنْهُ.

obeikandl.com

٨- هجرتُهُ ﷺ

(٦٩) وَنَحَا المُصطفى المدينَةَ واشتا قَتْ إليْهِ مِنْ مَكَّةَ الأنْحاءُ

واتجه المصطفى ﷺ وصاحبُه نحو يثرب (المدينة المنورة) حيث ترك مكة المكرمة، وجهاتُها ونواحيها تشتاق إلى رُؤياهُ، التي تعوَّدتْ عليها. فقد نظَر النبيُ ﷺ إلى مكة نظرةَ وداعٍ وقالَ: (يعلَمُ الله أنَكِ أحب بِقاعِ الأرضِ إلى قلبي، وَلَولاَ أن أهلَكِ أخرجُوني منْكِ ما خرجْتُ).

(٧٠) وَتَغَنَّتْ بِمَدْحِهِ الجِنُّ حَتَّى أطْرَبَ الإنْسَ مِنْهُ ذَاكَ الغِنَاءُ

أظهرت الجِنُ أوصافه الجميلة ﷺ، في صورة الغناءِ، الذي تميلُ إليه النّفْسُ، وهؤلاءِ كانُوا من مؤمني الجِن، الذين أطربهم هذا الغناءُ.

(٧١) وَاقتَفَى إثْرَهُ سُرَاقَةُ فَاسْتَهْوَ تْهُ في الأَرْضِ صَافِنٌ جَرْدَاءُ

اتبع أثرهُ سُراقة بن مالك المُدْلجي، فساخ حصانه في الأرض، وهو من الصافِنِ من الخيل، الذي يقومُ على ثلاث قوائم، ويرفعُ الرابعة عن الأرض على طرف حافِرِها، قليل الشعر قصيرُهُ، فغاض الفرسُ في الأرض، حتى بلغ الرُّكبتين، فاستنجد سراقة بالنبي ﷺ ، فعفا عنه.

(٧٢) ثُمَ نَادَاهُ بَعْدَ مَاسِيمَتْ الخَسْـ ـفَ وقَدْ يُنْجِدُ الغَرِيقَ النُدَاءُ

نادى سراقة رسُولَ الله ﷺ، النجدة يا محمد، فقد أُوقعتُ في الذل والهوان، وكان نداؤه هذا بانكسارِ وتذللٍ، فعفا عنه رسول الله ﷺ ، فنهض الفَرسُ من كبوته.

٩- إســـراؤه ﷺ

(٧٣) فَطَوى الأرضَ سَـائِرًا والسَّمَـ ـــوَاتِ العُـلى فوقَهـا لَـهُ إِسْراءُ

سارَ ﷺ على الأرض ليلة إسرائه، وهي تُطوى له، والسمواتُ العُلى فوقهُ.

(٧٤) فَصِف اللَّيلة التي كَـانَ للمُخْـ ـــتَارِ فيهـا عَـلى الـبُراقِ اسْـتواءُ

كانت ليلة الاثنين أو الجمعة أو السبت، وفيها أقوالٌ، فصف أيها الناظـر في شمائِلِهِ ﷺ، بما يُمكنكَ تلك الليلة التي استقر فيها ﷺ على البُراقِ، مع أَنَّهُ لم يركبه قبلاً، ولا هو من جِنس ما يَركبه بنو آدم، لأن استيعاب الوَصف ليس في مقدورك.

(٧٥) وَتَرَقَّـى بِـهِ إلى قَـابِ قَوْسَـ ـــيْنِ وتلْـكَ السِّـيادَةُ القَعسَـاءُ

وصَعَدَ بِهِ البراق ﷺ، وهذا ما دلَّت عليه رواية البخاري، إلى قاب قوسٍ، وهو تمثيل لقُربِهِ من رَبِّهِ قُرْبًا معنويًا.

(٧٦) رُتَبٌ تَسْقُطُ الأَمَـانيُ حَسْـرَى دُونَهَـا مَـا وَرَاءَهُـنَ وَرَاءُ

وتلك الرُّتب التي وصل إليها ليلة المعراج، هي الرفعة الثابتة، التي لا يعتورها تغيير، رُتب جليلة رفيعة جديرةٌ أن تتقاصر عنها الأماني، إذْ ليسَ أمامها رُتبٌ أسمى منها.

(٧٧) ثُمَّ وافَى يُحَدِّثُ النَّاس شُكْرًا إذْ أَتَتْـه مِـنَّ رَبِـهِ النَّعماءُ

ثُمَّ وصَلَ ﷺ إلى مكة قبل الصُّبح، وكان مقدار غيبته عنها ثلاث ساعاتٍ، وأَخَذَ يُحدثُ النَّاسَ بما رأى من العجائبِ، وشكر الله تعالى على ما أولاهُ من نعمته.

obeikandl.com

١٠ - أعمالُهُ ﷺ بعد الإسْرَاءِ

(٧٨) وَتَحَدَّى فَارْتَابَ كُلُّ مُرِيبٍ أَوَ يَبْقَى مَعَ السُّيُولِ الغُثَاءُ

تحدَّاهُم فطلب منهم أن يُعارضُوا ما جَاءَ بِهِ شاهدٌ على نبوته ﷺ، وهل بعد وضوح ما جاء به شكٌ أو ريب؟، وهل تبقي السُّيول الجارفة بعدها ما تحمله، ما يخف من النبات؟.

(٧٩) وَهُوَ يَدْعُو إلى الإلهِ وَإنْ شَقَّ عَلَيْهُ كُفْرٌ بِهِ وَازْدِراءُ

لقد مضى رسول الله ﷺ في دعوته إلى الله، برغم ما اعترضه في دعوته من صعاب ومن كفر الكافرين، وجهل الجاهلين، وما واجه من احتقار وانتقاص لقدره.

(٨٠) وَيَدُلُّ الوَرَى على اللهِ بالتَّوْحِيدِ وَهُوَ المَحَجَّةُ البَيْضَاءُ

أخذ ﷺ يطلبُ من الناس أن يوحِدوا الله تعالى، بأن يقروا بأنه واحدٌ في صفاته وأفعاله، وهو الطريقُ النيرةُ، التي لا يضل سالكها.

(٨١) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لانَتْ صَخْرَةٌ مِنْ إبَائِهِمْ صَمَّاءُ

إنَها رحمة الله الواسعة التي وسعت كُل شيء، هي التي جعلتك تلينُ لهم، رغم امتناعهم عن اتباعِ ما جئت بِهِ وهو الحق.

(٨٢) وَاسْتَجَابَتْ لَهُ بِنَصْرٍ وَفَتْحٍ بَعْدَ ذَاكَ الخَضْرَاءُ وَالغَبْرَاءُ

لقد أجابت دعوتَهُ ﷺ السماءُ والأرضُ، أي مَنْ في السمواتِ، ومَنْ في الأرض، جميعًا، وقد عبَّر عن الأرض بالخضراء، وعن السماء بالغبراء.

(٨٣) وَأَطَاعَتْ لأَمْرِهِ العَرَبُ العَـ ـرْبَاءُ والجاهليَّةُ الجَهْلاَءُ

لقد أطاعتْ أَمْرَهُ ونهيه العربُ العرباء والجاهلية الجهلاءُ، وإنما خَصَّ هذين بالذكر، لأن تصميمها على الكفر، بَلَغَ من القوة والشدّة، ما لم يبلغه تصميمُ غيرهما من المُنكرينَ المُعاندينَ.

(٨٤) وَتَوَالَتْ للمُصطَفى الآيَةَ الكـ ـبرى عَلَيْهِمْ والغَارَةُ الشَّعْوَاءُ

تتابعتْ لَهُ ﷺ، المعجزاتُ الباهراتُ، كالقُرآنِ وانشقاقِ القمرِ، وغيرهما، وتوالتْ غاراتُهُ على بِلاَدهم ونُفُوسهم وأموالهم.

(٨٥) فَإِذَا مَا تَلاَ كِتَابًا مِنَ اللهِ تَلَتْهُ كتيبةٌ خَضْرَاءُ

كثرت أتباعه ﷺ، حتى إذا ما تلا شيئًا مما أنزلَ عليه من القرآن الكريم، تبعته الكتائبُ مُزدحمين عليه، لأجل القراءة معه، أو استماعَ قراءته لا سيما الكتيبة الخضراءُ، التي دَخَلَت مكة وهو فيها على ناقته القصواء بين أبي بكرٍ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما.

(٨٦) وَكَفَاهُ المُستَهْزئينَ وَكَمْ سَا ءَ نبيًّا مِنْ قَوْمِهِ اسْتِهزَاءُ

لقد تولى الله تعالى إهلاك هؤلاء المستهزئين، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ

﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝﴾ [الحجر: ٩٥] وتعدَّدت مرات إهلاكهم.

(٨٧) وَرَمَاهُمْ بِدَعْوَةٍ مِنْ فِنَاءِ الْبَيْـ ـتِ فيها للظّالمينَ فَنَاءُ

كَفَاهُ رَبُّه - فضلاً وكرمًا منه - الجماعة الأشقياء، الذينَ بالغوا في إيذائه ﷺ، وقد سَلاَّهُ، فأعلمه بأن هذا ليس خاصًا بِهِ وحْدَهُ، بل وقع لمن قبلَهَ من الأنبياء مرارًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠] ، على أنه أصابُهم بدّعوةٍ منْهُ في حوالي الكعبة وجهاتها، فأصابتهُم وأهلكهم بظلمهم وبغيهم عليه.

١١- الخمسةُ الذينَ بالَغُوا في الاستهزاء بِهِ ﷺ

(٨٨) خَمسةٌ كُلُّهُم أصيبُوا بِدَاءٍ ... والرَّدى مِنْ جُنُودِهِ الأَدْواءُ

(٨٩) فَدَهى الأَسْوَدَ بنَ مُطلبٍ آيٌ ... عَمىً مَيتٌ بِهِ الأَحْيَاءُ

(٩٠) وَدَهَى الأَسْوَدَ بنَ عَبْد يغُوثٍ ... أَنْ سَقَاهُ كَأْسَ الرَّدَى استسقاءُ

(٩١) وأَصَابَ الوَليدَ خَدْشَةُ سَهْمٍ ... قَصَّرَتْ عَنْهَا الحَيَّةُ الرَّقْطَاءُ

(٩٢) وَقضَتْ شوكةٌ على مُهْجَةِ العا ... صِ فلِلَّه النَّقعةُ الشَّوكَاءُ

(٩٣) وَعَلاَ الحَارثَ القُيُوحُ وَقَدْ سَا ... لَ بِهَا رَأْسُهُ وَسَاءَ الوعَاءُ

(٩٤) خَمْسَةٌ طُهِّرَتْ بِقَطْعِهِمُ الأرْ ... ضُ فكَفُّ الأَذَى بِهِمْ شَلاَّءُ

كانَ هؤلاء الخمسةُ أَشَدَّ الناس استهزاءً بِهِ ﷺ، وقد أَثَّرتْ فيهم دعوتُهُ تأثيرًا شديدًا، فأصيب كُل منهم بدَاءٍ عياءٍ:

- فأصاب الأسودَ بن مُطلب، عمى عظيما طمس بصيرته كما طمس بَصَرَهُ، وألحقه بالأمواتِ وهو في الأحياءِ.
- وأصيبَ الأسودُ بن عبد يغُوث، بالاستسقاءِ الذي استمر به حتى أهلكه.
- وأصيب الوليدُ، بسهم في رِجْلَةَ، فبلغ منه ما لم تبلغه الحيَّةُ الرقطاءُ، بإهلاكه في أقرب وقت.
- ودخلت شوكةٌ في أخمص رِجل العاص، فَأَوْدَتْ بِهِ.

وما أعجب هذه القتلة الشديدة من الشوكة القليلة التأثير عادةً، فللَّه درُّها من شوكة، صرعته في أسرع وقت.

- أما الحارث، فقد استولت عليه القروحَ والقيوح، فسال بها رأسه، وقبح ذلك الرأس الذي هو الوعاءُ.

هؤلاء الخمسة الملاعين طُهرت بهلاكهم الأرض، فانقطعت عوامل الأذى بفنائهم، وتلاشت مصادر السوء بانمحائهم.

obeikandl.com

١٢- الخمسة الكرام

(٩٥) فُدِيَتْ خَمْسَةُ الصَّحيفةِ بالخَمْـ ـسَةِ إنْ كَانَ للكرامِ فِدَاءُ

(٩٦) فتيةٌ بَيَّتُوا على فِعْلِ خَيْرٍ حَمِدَ الصُّبْحُ أَمْرَهُمْ والمَسَاءُ

(٩٧) يَا لأَمْرٍ أَتَاهُ بَعْدَ هِشَامٍ زَمْعَةٌ إنَّهُ الفَتَى الأتَاءُ

(٩٨) وَزُهَيْرٌ والمُطعِمُ بنُ عَدِي وَأَبُو البُخْتُرِيُ مِنَ حَيْثُ شَاءُوا

(٩٩) نقَضُوا مُبرَمَ الصَّحيفةِ إذْ شَـ ـدَّتْ عَلَيْهِمْ مِنَ العِدَا الأَنْدادُ

(١٠٠) أَذْكَرَتْنَا بِأَكْلِهَا أَكْلَ مِنْـ ـسَأةِ سُلَيْمَانَ الأَرَضَةُ الحياءُ

(١٠١) وَبِهَا أخبرَ النَّبيُّ وَكَمْ أَخْـ ـرَجَ خَبْئًا لَهُ الغُيُوبُ خِبَاءُ

اللهم اجعل الخمسة الذينَ بالغوا في إيذاء النبي ﷺ فداءً للخمسة الكرامِ الذين سعَوا في نقض الصحيفة، وملخص هذه القصة:

إنّ قريشًا لما رأتْ عزّة النبي ﷺ بانتشار الإسلام في القبائل، وبحمله بضعة عشر من أصحابِهِ على الهجرة إلى الحبشة، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ، وكان ذلك بعد خمس سنين من النبوة، أجمعوا على أن يقتلوه، وجاءُوا عمه أبا طالب بعمارة بن الوليد، وكان أعز فتى فيهم، وطلبوا منه أن يأخذه بدل ابن أخيه، فاندفع بحميته وجمع بني هاشم وبني المطلب، وأدخلوه ﷺ شعبهم، ومنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعت قريش وتشاوروا أن يكتبوا كتابًا يتعاهدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا يُبايعُوهم ولا يقبلوا منهم صُلحًا حتى يُسلموه ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة بخط منصور بن عكرمة، فشلت يده، وعلقوها في الكعبة، فانحاز بنو المطلب إلى أبي طالب، ودخلوا في شعبه، إلا أبا لهب فكان مع قريش،

فأقامُوا على ذلك سنتين أو ثلاثًا، حتى جَهدوا، وكانَ لا يصلُ إليهم شيءٌ إلا يسيرًا. فلما مضت تلك المدة صمم أولئك الخمسة على نقضها، وكان رئيسهم هشامُ بن الحارث، نقضوا هذا الأمر المُبرم الذي نوته عشائرهم، على أن الله سلط الأرضة على الصحيفة فأكلتها، ولم تدعْ فيها إلا اسم الله تعالى، كذلك وَجَدها المطعم بن عدي حينما نهض إلى الصحيفة ليشقها، فكانت في هذه الحادثة ذكرى تسلط الأرضة على منسأة سليمان بن داود عليهما السلام... **وملخصُها** أن داود عليه السلام شرع في بناء بيت المقدس، أي في إعادته بعد انهدامه، إذْ أولُ مَنْ بناه آدم عليه السلام بعد بناء الكعبة بأربعين سنة، فمات داود عليه السلام قبل إكماله، وكان قد أوصى سليمان عليه السلام بإتمامه، فسخر سليمان الجنَّ للبناء فيه، إلى أن عَلِمَ أن أجلَهُ قد قرُبَ، فأمرهم ببناء قصر من زجاج، ففعلوا، فدخل فيه وأغلق بابه واستند على العصا، فمات، وهو واقف، وهُم دائبون فيما سخرهم فيه من الأعمال الشاقة لاعتقادهم أنه حيٌّ، ثم خرَّ ساقطًا فرأوه من خارج القصر، ففتحوه، فوجدوه ميتًا، قال تعالى: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤].

على أن النبي ﷺ أخبر عمَّه أبا طالب، بأن الأرضة أكلت الصحيفة، فأخبر أبو طالب قُريشا بذلك، وتبيَّنوا صدقَهُ. وليس هذا الإخبارُ بأمر الصحيفة أوّل معجزات النبي ﷺ، فإن المُغيبات التي أخبر عنها لا تنحصر، من ذلك:

- موتُ النجاشي يوم مات بالحبشة، وصلى عليه بأصحابِهِ.
- ومنها أن مُلْكَ فارس ممثّلا في كسرى، ومُلك الروم ممثّلا في قيصر- ينقطع بعدهما من العراقِ والشام.
- وأنَّهُ ﷺ قال لسُراقة بن مالك : (كيف بِكَ إذا لبِسْتَ سواري كسرى؟)، فألبسهُما عمرٌ له لما زال مُلك كسرى في زمنه تحقيقًا لذلك.

١٣- أُسْوَتُهُ ﷺ بالأنبياء قبلَهُ

(١٠٢) لاَ تَخَلْ جَانِبَ النبي مُضَامًا ... حِينَ مَسَّتْهُ مِنْهُمُ الأَسْوَاءُ

(١٠٣) كُلُّ أَمْرٍ نَابَ النبيينَ فالشِّدَّ ... ةُ فِيهِ مَحْمُودَةٌ والرَّخَاءُ

(١٠٤) لَوْ يَمَسُّ النُّضَارَ هُونٌ مِنَ النَّا ... رِ لَمَا اختيرَ للنُّضَارِ الصَّلاءُ

لا يظن أحدٌ أن المكاره التي أصابتْهُ ﷺ، من أعدائه إهانةً أو إضاعة لَهُ، فكُلُ ما يُلاقيه النبيُّون من ضيق أو سعةٍ في سبيل نَشْر دعوتهم، محمود العواقب، فإن مآله فوزهم ورفعتهم، فلا يُضيرهم ما يصيبهم من الأكدار، كما لا يصيب الذَّهب هَوانٌ بعرضِهِ على النارِ.

١٤ - من معجزاته ﷺ[1]

(١٠٥) كَـمْ يَـدٍ عـن نَبيِّـهِ كَفَّهَـا ا ... للهُ وَفي الخَلْـق كثـرةٌ واجـتراءُ

(١٠٦) إذْ دَعَا وَحْـدَهُ العبادَ وأمسَتْ ... مِنْـهُ في كـلِّ مُقلّـةٍ أقـذَاءُ

(١٠٧) هـمَّ قـوْمٌ بِقَتْلِـه فـأبى السَّيْـ ... ـفُ وَفَـاءً وَفَـاءَتْ الصَّـفْواءُ

(١٠٨) وَأَبُو جَهْل إذْ رَأى عُنقَ الفحْـ ... ـلِ إليْـهِ كأَنَّـهُ العَنْقَـاءُ

(١٠٩) واقْتضَاهُ النبيُّ دَيـنَ الإراشِـ ... ـيِّ وَقَـدْ سَاءَ بَيْعُـهُ والشـرَاءُ

(١١٠) وَرَأى المُصـطَفى أتَـاهُ بِـمَا لَمْ ... يُـنجِ مِنْـهُ دُونَ الوَفَـاءِ النَّجَـاءُ

(١١١) هُوَ مـا قَـدْ رآهُ مِـنَ قَبْـلُ لكـنْ ... مَـا عـلى مثلـهِ يُعَـدُّ الخطَـاءُ

(١١٢) وأَعَدَّتْ حـمَّالَة الحطب الفِهْـ ... ـرَ وَجَـاءَتْ كأنّهَـا الوَرْقَـاءُ

(١١٣) يَوْمَ جَاءَتْ غضبي تَقُول أفي مِثْـ ... ـلي مِـنْ أحْمَـدَ يُقَـالُ الهِجَـاءُ

(١١٤) وتَوَلَّـتْ وَمَـا رَأَتْـهُ وَمِـنْ أيْـ ... ـنَ تَـرى الشَّـمْسَ مُقلـةٌ عَمْيَـاءُ

(١١٥) ثَـمّ سَـمَّتْ لَـهُ اليهُوديَّـةُ الشا ... ةَ وكَـمْ سَـامَ الشِّـقوةَ الأشـقياءُ

(١١٦) فَأَذَاعَ الـذَرَاعُ مـا فيـه مِـنْ شَرٍّ ... بِنُطْـقٍ إخْفَـاؤُهُ إبْـدَاءُ

(١١٧) وبِخُلُـقٍ مِـنَ النَّبـي كـريمِ ... لَمْ تُقاصَـصْ بِجُرْحِهَـا العجمـاءُ

طالما استطالُوا عليه ﷺ حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده وترك ما هم عليه من الأباطيل والأضاليل، فوقاه الله شرهم، وأصبحوا لا يطيقون مقابلته ولا النظر إليه، فكأن أعينهم ضَعفت وأصابتها الأقذاءُ، يدُل على ذلك أيضًا الحوادث الآتية:

- أن بعض أعدائه أراد أن يقتله بالسَّيف، فامتنع عن الوصول إليه، وبعضُهم

أرادَ أن يقتله بالأحجار فرجعت عن إصابته، وكذلك رجع أبو جهل عن رميه ﷺ بالحجر، الذي أرادَ أن يرضخ به رأسَهُ، وقت سجُوده، حينما رأى عُنق فحل من الإبل مُمتدًا إليه، كأنَّهُ الدَّاهية العظيمة، يريد أن يأكله، وقد قال ﷺ في تفسير ذلك الفحل: (إنه جبريل ولو دَنَا أبو جهل مني لأخذه).

- وخُلاصة قصة أبي جهل والأراشي، أن الأراشي قدم مكة بإبل، فاشتراها منه أبو جهل، وماطلهُ في الثمن، فلجأ إلى قريش فأحالوه إلى النبي ﷺ على سبيل الاستهزاء بِهِ ﷺ، فذهب النبي ﷺ إلى أبي جَهْلٍ بمنزلِهِ، وطَلَبَ منْهُ أَنْ يُؤدي للأراشي ثمن إبله، فامتثل كُلَّ الامتثال، لأنه رآهُ ﷺ جَاءَهُ بِفَحْلِ إبل كالفحل الذي رآه في الحادثة السابقة، وَلاَ غرابة .. فما على مثل أبي جهل في العتو السالب إدراكه ينحصرُ الخَطَأ.

- وملخص قصة أم جميل وهي أمُّ جميل بنت حرب بن أميَّة، ولُقبت بحمالة الحطب لأنها كانت تحملُ حطب الشوك وتطرحه في طريق النبي ﷺ إرْضاءً لزوجها أبي لهب، فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ [المسد: ١-٥].

- ولما أن وصلتها هذه السورة، جاءتْ غضبي كالحمامة، وهي تقول: أفي مثلي وأنا بنتُ سيد مخزوم يُقالُ الذمُّ من أحمد! (ونسبت القول إليه لأنهم كانوا يعتقدون أن القرآنَ من عنده)، وكان النبيُّ ﷺ جالسًا مع أبي بكر الصديق، فأشار عليه أبو بكر أن يترك المجلس تفاديًا لبذاءَتها، فقال له: (لَنْ تراني) فستره الملك بجناحه، ومن أجل ذلك عادت بعد أن جاءَتْ، وما رأتْهُ، وكيف تراهُ ﷺ، وهو في ظهوره للقلوب السليمة والعقول المستقيمة كالشمس، وتلك المرأةُ في غاية من عمى البصيرة وفسادِ السَّريرة!!.

- مُلخص قصة اليهودية (وهي زينت بنت الحارث)، أنها سمتْ شاةً، وأكثرت من السُّم في الذراع والكتف، لما قيل لها: إنه ﷺ يحب الذراع، فلما أهدتها إليه أكل منها، وأكل بعض أصحابه، فأخبرته الذراع بأنها مسمُومة. فقال لأصحابِهِ: ارفَعُوا أيديكم... وجَمَعَ اليهود وقال لهُم: قد وضعتُم في هذه الشاة سُمًّا؟ قالوُا: نعم. قال: ما حملكم على هذا؟ قالوُا: قُلنا إن كُنت نبيًّا لم يضرك السم، وإنْ كُنْت كذابًا استرحنا منْك، وقد تُوفي من أصحابِهِ الذين كانوا معه بشر بن البراء، واحتجم ﷺ على كاهله من أجل الذي أكله منها، وكانَ هذا السُّم يتحرك عليه كل عام، حتى أنه قال في مرض موته: (مازالتْ أكْلةُ خيبر تُعاودُني، حتى قطعت أبهري) فكان لها دخل في موته، لينال رُتبة الشهادة، حتى لا تفوته رُتبة من رُتب الكمال، وبسبب ما تحلى به من كمال الحلم والعَفو والصفح، ولم تنَلْ اليهودية قصاصًا، وفي رواية أخرى أنَّه ﷺ دفع اليهودية إلى أولياء بشر بن البراء، فقتلوها قصاصًا.

obeikandl.com

١٥- شمائلُهُ ﷺ

(١١٨) مَنَّ فَضْلاً عَلى هَوَازِنَ إِذْ كَا ... نَ لَهُ قَبْلَ ذَاكَ فِيهِمْ رِبَاءُ

(١١٩) وأتى السَّبْيُ فيه أُخْتُ رَضَاعٍ ... وَضَعَ الكُفْرُ قَدْرَهَا والسِّبَاءُ

(١٢٠) فَحَبَاهَا بِرًّا تَوَهَّمَتْ النَّا ... سُ بِهِ أَنما السِّبَاءُ هِدَاءُ

(١٢١) بَسَطَ المُصطفَى لَهَا مِنْ رِدَاءٍ ... أي فَضْلٍ حَوَاهُ ذَاكَ الرِّدَاءُ

(١٢٢) فَغَدَتْ فيهِ وَهيَ سَيِّدَةُ النَسْـ ... ـوَةِ والسيِّدَاتُ فيهِ إِمَاءُ

(١٢٣) فَتَنَزَّه في ذَاتِهِ وَمَعَانيـ ... ـهِ استماعًا إنْ عَزَّ مِنها اجْتِلاَءُ

(١٢٤) وَامْلأ السَّمع مِنْ مَحَاسِنَ يُمْلَى ... بِهَا عَليكَ الإنشادُ والإنْشَاءُ

(١٢٥) كُل وَصْفٍ لَهُ ابتدَأتَ بِهِ اسْتَو ... عَبَ أخبارَ الفَضْل مِنْهِ ابْتداءُ

(١٢٦) سَيِّدٌ ضِحْكُهُ التبسُّمُ والمشـ ... ـيُ الهُوَيْنَا وَنَوْمُهُ الإغْفَاءُ

(١٢٧) مَا سوى خلقِهِ النسيمُ ولا غَيْرَ ... مُحَيَّاهُ الرَّوضَةُ الْغَنَّاءُ

(١٢٨) رَحْمَةٌ كُلُّه وَحَزْمٌ وَعَزْمٌ ... وَوَقَارٌ وعِصْمَةٌ وَحَيَاءُ

(١٢٩) لاَ تَحُلُّ البَأْسَاءَ مِنْهُ عُرَا الصَّـ ... ـبْرِ وَلاَ تَسْتَخِفُّهُ السَّرَّاءُ

(١٣٠) كَرُمَتْ نَفْسُهُ فَمَا يَخْطُرُ السُّو ... ءُ عَلَى قَلْبِهِ وَلاَ الفَحْشَاءُ

(١٣١) عَظُمَتْ نعمةُ الإله عَلَيْهِ ... فاستَقَلَّتْ لِذِكْرِهِ العُظَمَاءُ

(١٣٢) جَهِلَتْ قَوْمُهُ عَلَيْهِ فَأَغْضَى ... وَأَخُو الحِلْمِ دَأْبُهُ الإغْضَاءُ

(١٣٣) وَسِعَ العالمينَ عِلْمًا وَحِلْمًا ... فَهُوَ بَحْرٌ لَمْ تُعيِهِ الأَعْبَاءُ

(١٣٤) مُسْتَقِلٌّ دُنْياكَ أنْ يُنْسَبَ الإمْسـ ـاكَ مِنْهَا إليْه والإعْطَاءُ

(١٣٥) شَمْسُ فَضْلٍ تَحَقَّقَ الظَّنُّ فِيهِ أنَّهُ الشَّمسُ رِفْعَةً والضِّيَاءُ

(١٣٦) فَإذَا مَا صَحَا محا نُورُهُ الظـ ـلَّ وَقَدْ أثْبتَ الظِّلَالَ الضُّحَاءُ

(١٣٧) فَكَأنْ الغَمَامَةَ اسْتَوْدَعَتْه مَنْ أظَلَّتْ مِنْ ظلِهِ الدُّفَقَاءُ

(١٣٨) خَفيَتْ عِنْدَهُ الفَضَائلُ وانْجا بَتْ بِهِ عَنْ عُقُولِنَا الأهْوَاءُ

(١٣٩) أمَعَ الصُّبْحِ للنُّجُومِ تَجَلٍّ أمْ مَعَ الشَّمْس للظلامِ بَقَاءُ

(١٤٠) مُعْجِزُ القَوْلِ والفِعَالِ كَرِيمُ الخـ ـلْقِ والخُلْقِ مُقْسِطٌ مِعْطَاءُ

(١٤١) لاَ تَقِسْ بالنبي في الفَضْل خَلْقًا فَهُوَ البَحْرُ وَالأنَامُ إضَاءُ

(١٤٢) كُلُّ فَضْلٍ في العَالَمِينَ فَمِنْ فَضْـ ـلِ النبي اسْتَعَارَهُ الفُضَلاَءُ

هذه الأبياتُ تتضمنُ قصة غَزوهِ ﷺ هوازن قبيلة حليمة السعدية، وهُم أهل حُنين المذكورة في القرآن الكريم، غَزَاهُم عقب فتح مكة، لما بلغه أن أشرافُ هوازن وثقيف اتفقوا على حربهِ فخرج إليهم سادس شوال ٨ هـ في اثني عشر ألْفًا.

فلما غَلَبهُم أسَر نساءَهُم وصبيانَهُم، وكانُوا ستة آلافٍ، وأَخَذَ إبلهم وغنمهم وحُليهم، فجاءَ رجالهم بعدُ طائعين مسلمين، وقام رَجُلٌ من أقارب حليمة وقال: يا رسول الله، إن ما في الحظائر عماتك وخالاتك (أي من الرضاع لأنهن قريبات حليمة) وحاضناتك اللاتي كُن يكفلنك، فقال ﷺ: (إنَّ أحسن الحديث أصدَقُهُ، أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟) فقالوا: أبناؤنا ونساؤنا. فرد عليهم ما كان له وللمسلمين رعايةً لنشأته وتربيته فيهم، وكان بين أولئك الأسرى أخته ﷺ من الرضاع

واسمها (الشيماء)، فلما أسرُوها قالت: والله إني أختُ صاحبكم، فأتوا بها إليه وقد خفض الكُفر والأسْرُ قدرها، فقالت له ﷺ: (إني أختك) فقال: وما علامتك؟ قالتْ: عضّةٌ منْكَ في ظهري، فعرفها فأكرمها إكرامًا توهم الناسُ منهُ أن النساءَ اللواتي معها في السَّبي غير مسبياتٍ، وإنما جئن لإهداء عروس له ﷺ، لأن ذلك الإكرام العظيم الذي لقينه إنما يُفعل مثله عادَةً لنساء يُهدين عروسًا، لا لنساء مسبيات، ومن مظاهر برِّه بها أنه فرش لها رداءَهُ الحاوي للفضل العظيم لتجلس عليه، فصارت في ذلك الفضل كأنها سيدة أولئك النسوة، وكأنهن إماءٌ لها.

إنْ فاتتك رؤية ذاته الكريمة، ومشاهدة هذه الصِّفات العلية، فلا يفُتك تفريغ سمعك لكل ما يلْقى عليك من أوصاف ذاتِهِ، وعَلي صِفاته. ولا تقتصر على سماعك القليل من ذلك من محاسنه – التي لا توجد في غيره – التي يكررُها ويرددها إنشادُ تلك القصيدة وغيرها، وكذلك إنشاؤكم وإيجادكم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم ﴾ [الأنعام: ٩٨]، فهو الذي ابتدأ خلقكم، وكُلٌّ من ابتدأ شيئًا فقد أنشأه. ومما يدعوك لاستفراغ وُسعك في ذلك التنزه، وملء السَّمع من تلك المحاسن أنَّه يجب عليك أن تعتقد أن محاسن ذاته وكمال صفاته لا يُمكنك أن تحيط بها، وكلّما ابتدأت بوصف لَهُ وتأملت في ما اشتمل عليه صريحًا وإيحاءً، وجدت ذلك الوصف المبتدأ بِهِ جمع أنْواع الفضل، وغايات الكمال.

إن النبي ﷺ سيدُ العالمين، الأولين والآخرين، وضحكهُ في غالب أحواله التبسم، لحديث (فضحك حتى بدت نواجذهُ)، ومشيُه، مشي سكينة ووقار، ونومُهُ خفيف بالعين لا بالقلب، لا يُشبه النسيم إلا خلقه الكريم، ولا يشبه الروضة الغنَّاء إلا وجهه المُنير، كله رحمة وحزمٍ وعَزْم ووقار وعصمة وحياء، فهو عينُ الرحمة وما عُطف عليها مُبالغة.

لم تخرجه الشدّة ﷺ عن أسباب الصبر من العفو والصفح والشجاعة، ولم يُخرجه الرخاء عن ثباته ووقاره وتواضعه، وإنما اتصف بذلك لأن نفسه طهُرت من كل نَقْصٍ، واتصفت بكل كمالٍ، وبذلك لا يمُر بخاطِرِه السُّوءُ وَلاَ الفحشاء، وإذا تأملنا ما آتاه اللهُ من الكمالات التي تحدُّ علمنا، أن نعمة الله عليه قد عظمت عظمةً تقاصر عنها سائر المخلوقات، وعَدَّ الصالحون والأنبياء ما أنعم بِهِ عليهم قليلاً في جانبها.

لقد آذاهُ قومُهُ، ضربُوهُ وخنقوه، وأغروا بِهِ سُفهاءَهم وصغارَهُم، فضربُوه ورجموه بالحجارة وشجوا وجهه وكسروا رباعيته، ورمُوهُ بالسحر والكهانة والجُنُون، وتواعَدُوا على قتله مرارًا، وحصروا لأجله بني هاشم وبني عبد المطلب في شعبهم سنتين حتى كادوا يهلكون، فأعرض عنهم حلمًا وكرمًا، ومن طبعه الله على الحلم، اعتاد الإعراض والصفح، وقد أطلعه الله على العالم كلِّه، فوسعَ علمُهُ وحلْمُهُ عِلْمَ وحلم العالمين، فهو بحرٌ زاخرٌ عِلْمًا وحِلْمًا، لم يكدر بحر علمه شك ولا شبهةٌ، ولا بحر علمه إيذاء ولا جهالة، وقد كان ﷺ مُستصغرًا متاعَ الدنيا إنْ بذلَهُ لمن يستحقه، أو منعه عمَّن لا يستحقه بالنسبة لما يُعطيه من يستحق، وما يُمسكه عمَّن لا يستحقُّ من العُلُوم والمعارف والإرشاد، وإنّما احتقرها، لأنها لغنائها وكثرة الاشتغال بها عن الله، جديرةٌ بمزيد الإعراضِ عنها، وعَدَم الالتفاتِ إلى إمساكها وإخراجها، ولو لمستحقها، احتقارًا لشأنها، وتعليمًا للأمة، عدم الاعتداد بها.

إنَّه ﷺ شمسُ كمالٍ ينبعثُ منْهُ كل كمال، تحلى به أي كامل، وقد ثبت الاعتقاد الجازم في ذاته وصفاته، أنَّهُ الشمس في رفعته، واستحالة الوُصُول إليه، وانبعاث أضواءِ الكمالات، وليس في تشبيهه ﷺ بالشمس دلالة على فوقان الشمس عليه، فقد يسمُو المُشبه على المشبه به، على نسق (كما صليت على إبراهيم) وقد أراد البوصيري تقرير هذه الحقيقة

فأكد أن نوره ﷺ يمحو كُلَّ ظِل، ونورُ الشمس يثبتُ الظلال وقت ارتفاع النهار، أو انتصاف النهار وهي في عُنفوانها، ولما كان في تقرير هذه الحقيقة ما يتنافى مع ما سبقَ من تظليل الغمامة إيَّاه، جازَ أن يُقال: كيف يمحو نوره الظل وقد ثبت أن الغمامة أظلته؟ وتقرير الجواب أن يقال: إن محو نوره ﷺ للظلال هو الأصل المستمر، وأما بقاء ظِل الغمام مع نوره، فهو على خلاف الأصل، خرقًا للعادة، وذلك لحكمتين: الأولى – الإرْهاصُ والتأسيسُ لنبوته، والثانية – الإشارة إلى أن نوره المعنوي لم يُزل بموته، بل يبقى مشرقًا على أُمته، إلى يوم القيامة، فكأن حال الغمامة يقول لَهُ ﷺ: بقاءُ ظِلي مع نورِكَ المُنافي لَهُ، فيه إشارةٌ إلى أن ظلك يبقى مع ما ينافي بقاءَهُ، وهو موْتُكَ، فكأنّ الغمامة لما أظلّته أعلمته أنها استودعته، أي جعلته حافظًا من أظلهُم، أصحابُهُ المخبرعنهم (بالدفقاء)، ومن أظلهم أصحابه، هُم جميع الأمة إلى يوم القيامة. أي أن بقاءَ ظِل الغمامةِ الحسِّي، إشارة إلى بقاء ظِلِه المعنوي.

إنّ ما أوتيه غير خفيٍّ في جانب ما أوتيه من الفضائل الباهرة، وقد انكشفت عن عقولنا الأباطيل بما بثه فينا من العلوم والآداب البارعة، وإنما خفيت عنده الفضائل لأنه كالصبح، وغيره من الكاملين كالنجوم، وليسَ للنجوم مع الصُّبح إشراقٌ، وإنما انكشفت عن عقولنا الأهواءُ، لأن الأضاليل التي تشبه الظلمات لا تبقى مع عُلُومِهِ وآدابِهِ التي تشبه الشمس، فلاَ غرابةَ، فهو معجز القول والفعال، وإذا علمت ذلك فلا تشبه خلقًا بالنبي ﷺ في الفضل، كيف وهو البحرُ، والخلق كالغُدْران؟ (وهي جَمْعُ غدير)، ولا غرابة، فكل فضلٍ في العالمين، استمدَّهُ الفُضَلاَءَ من فضلهِ ﷺ.

١٦- من معجزاته ﷺ (٢)

(١٤٣) شُقَّ عَنْ صَدْرِهِ وَشُقَّ لَهُ البَدْ ... رُ وَمِنْ شَرْطِ كُلِّ شَرْطٍ جَزَاءُ

(١٤٤) وَرَمَى بالحصى فَأَقْصَدَ جيْشًا ... مَا الْعَصَا عِنْدَهُ وَمَا الإِلْقَاءُ

(١٤٥) وَدَعَا للأَنَامِ إِذْ دَهَمَتهُم ... سَنَةٌ مِنْ مُحُولِهَا شَهْبَاءُ

(١٤٦) فاستَهَلَّتْ بالغَيثِ سَبْعَةَ أَيَّا ... مٍ عَلَيهِمْ سَحَابَةٌ وَطْفَاءُ

(١٤٧) تَتَحَرَّى مَوَاضِعَ الرَّعي والسَّقْي ... وَحَيْث العِطَاشُ تُوهى السَّقَاءُ

(١٤٨) وَأَتَى النَّاسُ يشتكونَ أذاها ... وَرَخَاءٌ يُؤْذِي الأَنَامَ غَلاَءُ

(١٤٩) فَدَعَا فَانْجلى الغَمَامُ فقُلْ في ... وَصْفِ غَيْثٍ إقلاَعُهُ اسْتِسقَاءُ

(١٥٠) ثُمَ أَثرى الثرى فَقَرَّتْ عُيُونٌ ... بِقُرَاهَا وأُحييَتْ أحْيَاءُ

(١٥١) فَتَرَى الأَرْضَ غِبَّهُ كَسَمَاءٍ ... أَشْرَقَتْ مِنْ نُجُومِهَا الظَّلْمَاءُ

(١٥٢) تُخْجِلُ الدُّرَّ واليَواقيتَ مِنْ نَو ... رِ رُبَاهَا البَيْضَاءُ والحمْرَاءُ

لَمَّا رُوِعَ وأولم ﷺ في شق قلبه مِرارًا، جُوزي على ذلك بِجَزَاءٍ عظيم مُشابِه لَهُ في الصورة، وهو انشقاق القمر، الذي هو أظهر وأبهرُ معجزاته ﷺ، بعد القرآن الكريم، ومعنى الشرط الثاني: أنَّ من شرط كل شق وقع في البدن، أن يكون لهُ جزاءٌ وفائدةٌ وثمرةٌ، كبُرءٍ من مرض.

لَمَّا التقى الجمعان يوم بدرٍ، تناول كفًّا من الحصى فرمى بِهِ في وجوههم وقال ﷺ: (شاهت الوجوهُ) أي قبُحت وانهزمتْ، فقتل من قُتل من صناديد قريش، وأُسرَ مَنْ أُسر من أشرافهم، ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

فلا نقيس معجزة نبينا ﷺ في إلقاء ذلك الحصى بمعجزة موسى عليه السلام في إلقاء العصى، فإن تشتيت الجيش العظيم بالحصى القليل، أبهرُ من قلب العصا ثعبانًا، ويُلاحظُ أن أكثرَ معجزات بني إسرائيل كانت حِسِّية، لبلادتهم وعمى بصيرتهم، وأكثرُ معجزات هذه الأمة عقلية لِفرطِ ذكائهم، وكمال أفهامهم.

إن أهل المدينة ومن داناهم، غشيتهم سنةٌ جدْباءُ شهباء، لا خضرة فيها ولا مطر، فقام أعرابي، والنبي ﷺ يخطب يومَ الجمعة، وقال: يا رسول الله، هلك المالُ وضاعَ العيالُ، فادْع الله لنا، فرفع يديه وليس في السماء شيء من السحاب، فما وضعهُما حتى فات السحابُ أمثال الجبال فأمطرتهم (سبعة أيَّام كوامل) سحابة وطفاءُ، وكانت تتحرَّى الأمكنة المعطشة، التي تنخرق أسقية العطاش فيها ليُبسها وجفافها من عدمِ الماء، ولما استمرت سبعة أيام كوامل، أتى بعض الناس النبي ﷺ، وهو يخطب يوم الجمعة التالية، وسألوه أن يدعو لَهم، فإن الرخاء المؤذي في حُكم الشدة العظيمة، فقال: يا رسول الله تهدَّم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديهِ فانقطع المطرُ وخرجوا يمشون في الشمس. فَقُلْ ما شئت في وصف غيثٍ، طلبُ انكشافِه كالاستسقاء، واهتزت الأرْض ورَبَتْ، وأنبتت من كل زَوْجٍ بهيج، فقرَّت نواظِرُ العبادِ، وطابتْ خَواطرهم، وأصبحت الأرض المُزدانةُ بالأنوار والأزهار تشابه السماء التي أشرقت بنجومِها، وأصبح ما فيها من الأنوار البيضاء والحمراء، مُخجلاً للمُتحلين بالدُّرِّ والياقوت.

١٧- تمني البُوصيري رؤية وجهه ﷺ

(١٥٣) لَيْتَـــهُ خَصَّـــني برؤيـــةِ وَجْـــهِ ... زَالَ عَـــنْ كُـــل مَـــنْ رَآهُ الشَّـــقَاءُ

(١٥٤) مُسْـــفِرٍ يلتقـــي الكتيبـــة بَسَّـــا ... مَـــا إذا أَسْـــهَمَ الوُجُـــوه اللقـــاءُ

(١٥٥) جُعِلتْ مَسجِدًا لـه الأَرْضُ فاهـ ... ـــتزَ بِـــهِ للصَّـــلاةِ فيهـــا حِـــرَاءُ

(١٥٦) مُظْهِـــرٍ شـــجَة الجبـــين عَـــلَى الـــبُرْ ... ءِ كَـــمَا أظْهَـــرَ الهِـــلاَلَ الـــبَرَاءُ

(١٥٧) سُتِرَ الحُسْنُ مِنْهُ بالحُسْنِ فَاعْجَب ... لِجَـــمَالٍ لَـــهُ الجَـــمَالُ وقَـــاءُ

(١٥٨) فَهْوَ كالزَّهْرِ لاَحَ مِنْ سَجَفِ الأكْـ ... ـــمامِ وَالعُـــودِ شُـــقَّ عَنْـــهُ اللِّحَـــاءُ

(١٥٩) كَادَ أَنْ يغشـي العُيُـونَ سَـنىً مِنْـ ... ـــهُ لِـــسرٍّ فيـــهِ حَكَتْـــهُ ذُكَـــاءُ

(١٦٠) صـانَهُ الحُسْـنُ والسـكينة أَنْ تُظْـ ... ـــهِرَ فيـــهِ آثارَهَـــا البأسَـــاءُ

(١٦١) وَتَخَـــالُ الوُجُـــوهَ إنْ قَابَلَتْـــهُ ... أَلْبَسَـــتْهَا أَلْوَانَهَـــا الحِرْبِـــاءُ

(١٦٢) فَـــإذَا شِـــمْتَ بِشْـــرَهُ وَنَـــدَاهُ ... أَذْهَلَتْـــكَ الأَنْـــوارُ وَالأَنْـــوَاءُ

تمنى البوصيري رؤية وجهه الكريم في حياته ﷺ بأن كان في عصره أو في يوم القيامة، أو في النوم أو في اليقظة، والظاهرُ أن هذا الأخير هو الذي أراده البوصيري، لأنه تلميذ القطب أبي العباس المرسي، وارث القُطب الأكبر أبي الحسن الشاذلي، وكُلٌّ منهما حُفظت عنْهُ رؤية النبي ﷺ يقظة .. تمنى رؤية هذا الوجه الذي تزول أنواع الشقاء عَمَّن يفوز برؤيته، وقد وصفه بأنه مشرق مضيء، يلاقي الجيش العظيم مُبتسمًا إذا غير لقاءُ العدو الوُجوه لعظيم ما آتاه الله من الشجاعة، وقد اختصّ ﷺ هو وأُمَّتُه بصحة الصلاة في سائر الأصقاع وسائر بقاع الأرض، كما في الحديث:

«أعطيت خمسًا لم يُعطهن غيري (أحد قبلي): نُصرت بالرُّعب مسيرة شهر، وجعلتْ لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا، فأيما رجُل من أمتي أدركتْه الصلاة فليصل، وأحلَّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشّفاعة، وكل نبي بُعث إلى قومِهِ خاصَّة، وبعثت إلى الناس عامة»... [رواه الشيخان والنسائي عن جابر].

ورُوي أنّه ﷺ كانَ على أُحدٍ ذات يوم هو وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير، فتحركَ الجبل، فقال: (اسكُن (أُحُد) ما عليك إلاّ نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدٌ)، وروي غير ذلك. وهذا الحديث الشريف يُفسر قول البوصيري (فاهتز بِهِ).

وقد وَصَف وجهه الكريم ﷺ بأنه أكسبَ موضعَ الجروح بعد بُرئه رونقًا وبهاءً، كما أظهرت أوّل ليلة من الشهر الهلال في معرضِ الحُسن والجمال، وقد ستر ذلك الوجه الحُسن الأصلي بالحسن العارض من الجرح، ولذلك قال: فاعجب لجمال أصلي له الجمالُ العارض وقاية وصيانة، فكأن باطنَ بدنه الزهر الذي ظهر من الأكمام، أو العُودُ الذي زالت قشرته، وقد كاد النُّور المُنبعث من جمالِهِ الباطني يُغشي العيون بسر كامنٍ في ذلك الباطن وقد فاق ضوء الشمس، ولذلك شابهته الشمسُ المدلول عليها بـ"ذُكاء"، وإنّكَ لتظُن أن الوجوه تتلوَّن تلون الحِرباءِ، إن عاينته من فرط جمالِهِ، وبسبب هذا الجمال الباهر، إذا نظَرْتَ إلى طلاقة وجهه وجمودك أنستْكَ "ما أنت بصددِه" الأنوار الباهرة، التي تحصل لَكَ من بشرهِ عند رؤية وجهه، والأنواءُ، أي الخيرات الواصلة منه لمن قصد نداهُ، فالأنوار راجعة للبشر ... والأنواءُ، راجعة للندَى.

١٨ - تمني البوصيري تقبيل راحته الكريمة ﷺ وإيرادُ أوصافها السَّنيَّة

(١٦٣) أَوْ بِتَقبيلِ رَاحَةٍ كَانَ لله ... وَبِالله أَخْذُهَا وَالْعَطَاءُ

(١٦٤) تَتَّقي بَأْسَهَا المُلُوكُ ويحظَى ... بِالغِنَى مِنْ نَوَالِهَا الفُقَراءُ

(١٦٥) لاَ تَسَلْ سَيْلَ جُودِهَا إِنَّمَا يَكْـ ... ـفِيكَ مِنْ وَكْفِ سُحْبِهَا الأَنْدَاءُ

(١٦٦) دَرَّتْ الشَّاةُ حِينَ مَرَّتْ عَلَيْهَا ... فَلَهَا ثَرْوةٌ بِهَا وَنَمَاءُ

(١٦٧) نَبَعَ المَاءُ أَثْمَرَ النَّخْلُ فِي عَا ... م بِهَا سَبَّحَتْ بِهَا الحَصْبَاءُ

(١٦٨) أَحْيَتْ المُرْملينَ مِنْ مَوْتِ جَهْدٍ ... أَعْوَزَ القَوْمَ فِيهِ زَادٌ وَمَاءُ

(١٦٩) فَتَغَذَّى بِالصَاعِ أَلْفٌ جِيَاعٌ ... وَتَرَوَّى بالصاعِ أَلْفٌ ظِمَاءُ

(١٧٠) وَوَفَى قَدْرَ بَيْضَةٍ مِنْ نُضَارٍ ... دَيْنَ سَلْمَانَ حِينَ حَانَ الوفَاءُ

(١٧١) كَانَ يُدْعَى قِنًّا فَأُعْتِقَ لَمَّا ... أينَعَتْ مِنْ نَخِيلِهِ الأَقْنَاءُ

(١٧٢) أَفَلاَ تَعْذُرُونَ سَلْمَانَ لَمَّا ... أَنْ عَرَتْهُ مِنْ ذِكْرِهِ العُرَواءُ

(١٧٣) وَأَزَالَتْ بِلَمسِهَا كُلَّ دَاءٍ ... أَكْبَرَتْهُ أَطِبَّةٌ وَإِسَاءُ

(١٧٤) وَعُيُونٌ مَرَّتْ بِهَا وَهِيَ رُمْدٌ ... فَأَرَتْهَا مَا لَمْ تَرَ الزرقَاءُ

(١٧٥) وَأَعَادَتْ عَلَى قَتَادَةَ عَيْنًا ... فَهْيَ حَتَّى تَمَاتِهِ النَّجْلاَءُ

تمنى البُوصيري تقبيل راحته ﷺ، ووصفها بأوصافٍ شتى: منها أن أخذها وعطاءَها كان ابتغاء مرضاة الله، وبإعانته تعالى، لبراءته ﷺ من الأغراضِ المنافية للكمال، ولذلك كانت المُلوكُ تخافُ شدَّتها في الحرب، وأن الفقراء كانُوا يفوزُون بالغنى

من عطائها، ثُمَّ نبه طالب عطائه ألا يستجدي الكثير، إذْ القليل من عطائه ﷺ يكفيه، وقد سَرَد البوصيري في الأبيات أوْصافَها السَّنيَّة...

وكُلُّ وَصْف مبني على قصة تفصيلُها كما يأتي:

١) قصة الشاة التي أرسلت لبنها الغزير حين مرّت عليها يده ﷺ:

لَّما خرجَ ﷺ من غار ثورٍ مهاجرًا إلى المدينة ومعه أبو بكرٍ ومولاه عامر بن فهيرة، مرُّوا على أم معبد الخزاعية، وكانت تسقي وتُطعم القوم، وكانت بَرْزَة "سافرة المحاسن، الشديدة الجميلة التي تبرزُ للقومِ يجلسُونَ إليها ويتحدَّثونَ إليها وهي عفيفة" وكانت في غاية القحط، فطلبُوا منها لبنًا ولحمًا يشترونَهُ، فلم يجدوا عندها شيئًا، فنظر ﷺ إلى شاةٍ في جانب الخيمة، تخلَّفت عن الغَنَمِ لشدة الجُوعِ، فسألها: هل بهَا من لَبن؟ فقالت: هي أجْهَدُ من ذلك، فقال ﷺ: أتأذنين لي أنْ أحْلِبها؟ قالتْ: نعم، إن رأيت بها لبنًا يُحلب، فاحلبها .. فمسح ضرعها بيده وسَمَّى الله تعالى، ففتحت رجليها للحلب ودَرَّتْ، ودَعَا بإنَاءٍ يُشبعُ الجماعة، فملأه من حلبها، وسقى القوْمَ حتى رُوُوا، ثُمَّ شرب آخرهم، ثم حلب بيدهِ مرة أخرى، ثُمَّ تركهُ عندها، ومضُوا.

٢) قصة نبْعُ الماءِ بيده ﷺ:

في الصحيحين عن أنس أنَّ النَّاس احتاجُوا لصلاة العصر... فلم يجدُوا الماءَ، فأتى ﷺ ووضع يدهُ الشريفة في هذا الإناء فنبع الماءُ من بين أصابعِه، حتى توضأوا كلهم .. وقد تكررّ نبع الماءِ بين أصابعه ﷺ في عدّة موَاطِنَ، في مشاهد عديدة، ووردَت قصتُه من طُرُقٍ كثيرة، يُفيدُ مجموعها العِلْمَ القطعيَّ المُستفاد من التواتر المعنوي.

٣) قصة إثمار النّخيلِ بيدهِ ﷺ:

لما قدم النبي ﷺ المدينة، أتاهُ سلمانُ الفارسي وآمن به، وكان مُسترقًا "مُدَّعى رقهُ بالكذب" فأمره ﷺ أن يُكاتب سيده، فكاتبهُ على غرس ثلاثمائة وَدِية "نخلة صغيرة"

وتعهدها حتى تثمر، وأربعينَ أوقيَّة ذَهبًا، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فأمر أصحابه أنْ يُعينُوهُ بالوَدِيِّ، فأعانُوهُ به ثم وضعه ﷺ بيده، فما ماتتْ منها واحدة، وأثمرتْ كُلَّها في عامها، وبقي عليه الذّهب، فجاءَ النبي ﷺ مثلُ بيضة دجاج من ذهب من بعض المعادن، فأعطاها إياه، فاستقّلها، فقال له ﷺ: خُذْها فإن الله سيؤدي بها عنْك، فَوْزَنَ لهم منها أربعين أوقية!.

٤) قصة تسبيح الحصى بيده ﷺ:

رَوَى البزار والطبراني وغيرهما: أنه ﷺ كان عنده أبو بكرٍ وعُمر وَعُثمان، فقبض حصيات فسبحَن في كفهِ، حتى سُمع لهُن حِسٌّ كحس النحل .. فَنَاوَلَهُن أبا بكرٍ، فسبحَن في كفه كذلك، ثم عمر كذلك، ثم عثمان كذلك، ثم أخذها الحاضرون فلم تسبح مع أحَدٍ منهم.

٥) إحياءُ راحته ﷺ المُرملين:

طالَمَا وضع ﷺ يدهُ الكريمة في الأطعمة والأشربة القليلة في أوقات الشدَّة، فبارك الله فيها بركة عظيمة كرامة لَهُ ومعجزة لَهُ ﷺ، وكانت سبب حياتهم وانتعاشهم بعد إشرافهم على المَوْتِ.

والأحاديث في هذا المعنى كثيرةٌ منها:

- ما وَرَدَ في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه رأى بالنبي ﷺ يوم الخندق جُوعًا شديدًا، فذهب لامرأته وأخبرها، فأخرجت صاعًا من شعير وشاةً، فذبحتها وطحنت الشعير، فلّما وضعت اللحم في البُرمة، ذهب جابرٌ للنبي ﷺ وأخبره، وطلب أن يأتي بنفرٍ معه، فصاحَ النبي ﷺ: «يا أهل الخندقِ، إنّ جابرًا صَنع سُؤْدًا "وهو الطعام الذي يُدعى إليه" فحيهلاً بكم» وأمره ألا يُنزل البُرمة، ولا يخبز العجين حتى يجيء، فلما جَاءَ ﷺ تفل في العجين وباركَ ، ثم في البُرمة وبارك،

وأمر زوجة جابر أن تدعُو خابزة تخبزُ معها، وأن تغرف من بُرمتها ولا تُنزلها، فأكلوا وهُمْ ألفٌ حتى تركُوه، وإن عجينَهُم وبُرمتُهم كما هُما !.

والمُرادُ بالألف العدد الكثير:

- ففي بعض المواطن كالحديبية كانُوا ١٤٠٠ نفس أو ١٥٠٠ نفس.
- وفي بعض المواطن كانوا ٣٠٠ نفس. وفي بعضها كانوا أقل.
- وفي غزوة تبُوك كانُوا ألُوفًا مُؤلّفة.

٦) قصة سَلْمان الفارسي:

سلمانُ الفارسيُ من أصبهان، وكانَ مجوسيًا ثم تنَصَّر، واتّبع فريقًا من عُلماءِ النّصارى بالتتابع، إلى أَنْ أوْصاه آخرُ متبوعيه باتباع النبي الذي سيخرجُ من بِلاَدِ العربِ، وأرشَدَهُ إلى علامات، أخصُّها خاتمُ النبوة الذي كان بين كتفيه، فمَر بِهِ نفر من بني كَلْبٍ، فالتمس منهم أن يحملوُهُ إلى جزيرة العربِ، فَلما بَلغوا وادي القِرى ظَلَمُوهُ وباعُوهُ ليهودي، باعَهُ لابن عمٍّ لَهُ يهودي بالمدينة، وأقام بها إلى أن بُعث النبي ﷺ وهَاجَرَ إلى المدينة، وَوَصَلَ إلى سَمْعه ذكرهُ ﷺ فأخذته رِعْدَة وأخذ يختلف إليه، ولما تحقق أن بين كتفيه خاتمُ النبوة، قص عليه حديثه وأسْلَمَ، فأَمَرَهُ ﷺ أن يُكاتب سيده .. "سبق ذكرُ إعتاقه". ومن ذلك ظهر أنه كان من الأحرار ولم يكُن رقيقًا، إلا بالادّعاء، أنهُ قِنٌّ وقد كان من المعمرين، عاش ١٥٠ سنة.

٧) ومن أوصاف راحته الشريفة ﷺ:

أنَّها أزالتْ كُل داءٍ أعيا الأطباءَ ببركة مسِّها الأعِلاَّء.

روى البُخاري أنّ سلمة أُصيب يومَ خيبر بضربةٍ في ساقه، فَنَفَثَ النبي ﷺ ثلاث نفثات فما اشتكى قط، وروي غيرُ ذلك.

ومنها أَنَّهُ ﷺ أمَرَّها على عيونِ رُمُدٍ فقوي إبصارُها، حتى أصبحتْ ترى ما لم

ترَهُ الزْرقاءُ التي كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيامٌ.

ومنها: أن قتادة بن النعمان ﷺ أصيبت عينُهُ يوم أُحُدٍ فوقعت على وجْنته، فأتى بها النبي ﷺ فقال:

يا رَسول الله، إنّ لي امرأة أحبُها، وأخشى إنْ رأتني تستقذرُني. فأخذها رسُولُ الله ﷺ بيدهِ الشريفة، ورَدّها إلى موضِعها، ثم قال: "اللهم اكسُها جَمَالاً".

فكانت أحسَن عينيه، وأحَدَّهُمَا نَظرًا، وكانت لا ترمدُ إذا رمدت الأخرى، ورُوي غيرُ ذلك....

obeikandl.com

١٩ - تمنيه تقبيل التراب من قدمه ﷺ

(١٧٦) أَوْ بِلَثْمِ التُّرَابِ مِنْ قَدَمٍ لاَ ... نَتْ حَيَاءً مِنْ مَشْيِهَا الصَّفْوَاءُ

(١٧٧) مَوْطِئ الأخمص الذي منُه للقلْـ ... ـبِ إِذَا مَضْجَعي أَقَضَّ وِطَاءُ

(١٧٨) حَظِيَ المسْجِدُ الحَرامُ بمَمْشَا ... هَا وَلَمْ يَنْسَ حَظَّهُ إِيلْيَاءُ

(١٧٩) وَرِمَتْ إِذْ رَمَى بِهَا ظُلَمَ اللَّـ ... ـيْلِ إلى الله خَوْفُهُ وَالرَّجَاءُ

(١٨٠) دَمِيَتْ في الوَغى لِتُكسبَ طيبًا ... مَا أَرَاقَتْ مِنَ الدَّمِ الشهَدَاءُ

(١٨١) فَهْيَ قُطبُ المِحْراب والحرْب كَمْ دَا ... رَتْ عَلَيْهَا في طَاعَةٍ أَرْحَاءُ

(١٨٢) وَأَرَاهُ لَوْ لَمْ يُسَكِّنْ بِهَا قَبْـ ... ـلُ حِرَاءً مَاجَتْ بِهِ الدَّأْمَاءُ

تمنى البُوصيري تقبيل موطِئ قدمَهِ الشريفة ﷺ، التي لانَتْ الحجارة الصَّلْدَةُ بمسِّها، استحياءً مِنْه، أن تستمر على صلابتها مع مسِّه لها، وعبَّر عنها "بالأخمص" تعبيرًا بالبعض عن الكل، وأن موضعها يكُون وِطَاءً لقلبه، ومهادًا له، لشدَّة ميل إليه إذا خشنت المضاجع، وقد صرّح بأن كلاَ المسجدين شرُف بمشيه ﷺ، وأن قدمهُ ورمت كما في حديث الصحيحين أنه ﷺ قام من الليل حتى تورمت قدماهُ، فقيل لَهُ: أتتكلفُ هذا وقد غفر اللهُ لك ما تقدمَ من ذنبك وما تأخّر؟ قال: أفلا أكُونُ عبدًا شكورًا؟ وإن خوفه ورجاءَهُ كانا لله تعالى، لا لغرض آخر، لأنه تعالى عصمه عن أن ينظر أو يميل إلى غيره طرفة عيْنٍ، وأن قدمه الشريفة دميت في الحرب، لتُكسب ما أراقهُ الشهداءُ من الدماءِ طيبًا، حتى تكونَ رائحةُ دمهم كريح المسك، وأن الثبات في الصلاة والحرب إلى حالةٍ لم تُوجَد في غيرها، انتهى إليها، ولذلك دارتْ عليها قبائلُ العربِ، الذينَ أكرمهم الله تعالى بِطاعته للاقتداء بها والمجاهدة معها.

٢٠- التعجبُ من الكُفّارِ الذين شاهدُوا معجزاته ﷺ ومع ذلك لم يزدَادُوا إلاّ ضَلاَلاً

(١٨٣) عَجَبًـا للكُفـارِ زَادُوا ضَـلاَلاً ... بالـذي فيـه للعُقـولِ اقْتـدَاءُ

(١٨٤) وَالـذي يَسْـأَلُونَ مِنْـهُ كِتَـابٌ ... مُنْـزَل قَـدْ أَتَـاهُم وارتقـاءُ

(١٨٥) أَوْ لَمْ يكفهـم مِـنَ اللهِ ذِكْـرٌ ... فيـهِ لِلنَّـاسِ رَحْمَـةٌ وَشِـفَاءُ

تعجب البوصيري من بقائهم على كُفرهم مع مشاهدتهم لمعجزاته ﷺ، بل من ازدياد كفرهم مع مشاهدتهم من الآيات والمُعجزات، ما يُرشدُ العقولَ إلى الحق، لولا المعاندة والخذلان، وأخذ يوبخّهم بما حكاه عنهم، من أنّهُم سألوهُ أنّ يرقى في السّماءِ، ويأتيهم بكتاب مُنزّل عليه.

ولم يكفهم عن ذلك الذي تعنّتوا بطلبه واقترحُوهُ عليه، ما أُنزِلَ عليه من الكتاب العزيز، الذي هو رحمة للمذنبين، وشفاءٌ للمؤمنين، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

٢١- وَصْفُ القُرآنِ الكريم

(١٨٦) أَعْجَزَ الإِنْسَ آيةٌ مِنْهُ والجـ ـــنَّ فَهَلاَّ يَأْتي بِهَا البُلَغَاءُ

(١٨٧) كُلَّ يَوْم تُهْدِي إلى سَامِعِيهِ مُعْجِزَاتٍ مِنْ لَفْظِهِ القُرّاءُ

(١٨٨) تَتَحَلَّى بِهِ المَسَامِعُ والأَفْـ ـــوَاهُ فَهُوَ الحُلِيُّ وَالحَلْواءُ

(١٨٩) رَقَّ لَفْظًا وَرَاقَ مَعْنًى فَجَاءَتْ في حُلاَهَا وَحَلْيِهَا الخَنْسَاءُ

(١٩٠) وَأَرَتْنَا فيهِ غَوَامِضَ فَضْلٍ رِقَّةٌ مِنْ زُلاَلِهَا وَصَفَاءُ

(١٩١) إِنَّمَا تَجْتَلِي الوُجُوهُ إِذَا مَا جُلِيَتْ عَنْ مِرْآتِهَا الأَصْدَاءُ

(١٩٢) سُوَرٌ مِنْهُ أَشْبَهَتْ صُوَرًا مِنّـ ـــا وَمِثْلُ النّظَائِرِ النُّظَرَاءُ

(١٩٣) وَالأَقَاوِيلُ عِنْدَهُمْ كالتماثيـ ـــلِ فَلاَ يوهمنَّك الْخُطَبَاءُ

(١٩٤) كَمْ أَبَانَتْ آياته مِنْ عُلوم عَنْ حُروف أَبَان عَنْها الهجاءُ

(١٩٥) فهي كالحبِّ والنَّوى أعْجب الزُّ رَّاعَ مِنْهُ سَنَابِلٌ وَزَكَاءُ

(١٩٦) فأَطَالوا فيه التَّرَدُّد والرَّيْبَ فَقَالوا سِحْر وقَالوُا افتراءُ

(١٩٧) وَإِذَا البيِّنات لَمْ تُغْنِ شَيْئًا فَالْتماسُ الهُدى بِهِنَ عَنَاءُ

(١٩٨) وإِذَا ضَلَّتْ العُقُولُ عَلَى عِلْم فَمَاذَا تقُولُهُ النُّصَحَاءُ

إن آياتِ القرآن الكريم أوضحتْ من العلومِ والمعارفِ ما لا يُحدُّ بِحُرُوفٍ قليلةٍ بالنسبة لها وهي حروف الهِجاء. ولا غرابة، فإنَّ المتناهي قد يحصُل منهُ مالا يتناهى ..ألا ترى أن الحَب الذي يُلقيه الزرّاع في الأرض، قد ينشأ عنهُ منَ السَّنابل والحبوب ما لا يكادُ يُحصى، والنَّوى الذي يلقيه الغرَّاسُ في الأرض قد ينشأ عنه من الثمر كذلك..

ومع ذلك فإنَ الكُفار أطالوا فيه التردد والرَّيب، فقالوا: سحرٌ كما حكاه الله عنهم. وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] لقد كذبوا ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١-٢٢] وقال جلّ شأنُهُ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

وإذا كانت هذه الحُجج القطعية البُرهان، الواضحة البيان، لم تهدهم إلى سَواءِ السَّبيل، فالتماسُ الهُدى بِهِنَّ تعبٌ وعَنَاءٌ، وإذَا ضَلّتْ العُقُولُ عن طريق الحق مع العلم بِهَا، فأي قولٍ تقولُه النُّصَحَاءُ؟!.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية ٢٣].

- قال بعضُهُم: أصُولُ عُلُوم القُرآن ثلاثة: (توحيد، ووعظ، وحِكَمٌ)، ولذا سُميت الفاتحة أُم القرآن لاشتمالها على هذه الثلاثة، وكانت سورة الإخلاص ثُلث القرآن لاشتمالها على الأوّل "التوحيد".

- وقال الشافعيُ رضي الله عنه: "كُل ما حَكم بِهِ النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن".

- وقال بعضُهم: لَمْ يُحط بعلوم القرآن إلا الله ثم نبيّه ﷺ، فيما عَدا ما استأثر الله بعلمه، ثم ورثَ عنهُ معظم ذلك أعلامُ الصحابة مع تفاوتهم فيه، كأبي بكرٍ فإنه أعلمُهُم، بِنَص ابن عُمَرَ وغيره، وكعلي كَرَّمَ اللهُ وجْههُ لقولِهِ ﷺ: "أَنَا مدينة العلم، وعليٌّ بابُها". ولذلك قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: "جميعُ ما أبرزتُه لكم من التفسير فهو من علي كرّمَ الله وجهه".

٢٢- الاحتجاج على اليهود والنصارى (أ)

(١٩٩) قَوْمَ عيسى عَامَلْتُمْ قَوْمَ موسى ... بالـــذي عَـــامَلَتْكُمُ الحُنَفَـــاءُ

(٢٠٠) صَـدَّقُوا كُتْبَكُمْ وَكَـذَّبْتُمْ كُتْبَـ ... ـــهُمْ إِنَّ ذَا لَبِـــئْسَ البَـــوَاءُ

(٢٠١) لَوْ جَحَدْنَا جُحُودَكُمْ لاسْتَوَيْنا ... أَوَ لِلَحـــقِ بِالضَّـــلاَلِ اســـتِوَاءُ

(٢٠٢) مَـا لَكُـمْ إِخْـوَةَ الكِتَـابِ أُنَاسًـا ... لَيْسَ يُرْعَـى لِلحَـقِ مِـنْكُمْ إِخَـاءُ

(٢٠٣) يَحْسُـدُ الأَوَّلُ الأَخِـيرَ وَمَـا زَا ... لَ كَـذَا المُحْـدَثونَ والقُـدماءُ

(٢٠٤) قَـدْ عَلِمْـتُمْ بِظُلْـمِ قابيـلَ هَابيـ ... ـلَ وَمَظْلُـومُ الإِخْـوةِ الأتقيـاءُ

(٢٠٥) وسـمِعْتُمْ بكَيْـدِ أَبْنَـاءِ يعقُـو ... بَ أَخَـاهُمْ وَكُلُّهُـمْ صُـلَحَاءُ

(٢٠٦) حِـينَ أَلْقَـوْهُ فِي غَيابَـةِ جُـبٍّ ... وَرَمَـوْهُ بِالإِفْـكِ وَهْـوَ بَـرَاءُ

أيُّها النصارى إنكم صدقتم بكتاب اليهود وهو "التوراة"، كما صدق المسلمون بكتابكم وهو "الإنجيل"، ولكن اليهُود كذبُوا بكتابكم، وهو من سُوءِ صنيعهم، ولو أنكرنا "التوارة والإنجيل" كما أنكرتم كتابنا، لاستوينا في الضلال، ولكن ليس للحق – وهو ما نحن عليه من التصديق بجميع كتب الله ورُسله – بالضلال – وهو ما أنتُم عليه من التصديق بالبعض والكُفر بالبعض – مُساواة – بل بينهما غاية التضاد.

وفي التصريح بأن النصارى صدقوا بكتاب اليهُود، دون العكس ما يغاير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣].

ويُجابُ عن ذلك، بأنَّه لا يلزم من ادّعاءِ كل فرقة في الأخرى ما ذكر – إنكارُ كتابهم– ويُحتملُ إعادةُ ضمير صدّقوا، وكتُبهم إلى الحُنَفَاءِ، بدُونِ افتراضِ الالتفاتِ، وفي السِّياقِ ما يؤيدُ كلا من الاحتمالين.

أي شيء حصل لكم معشر اليهود والنصارى، فأعرضتُم عن مُراعاة الدِّين الحق بالقيام بما يجب من الحقوق، التي منها تصديقُ النبي ﷺ عملا بما في كتبكم، ومن مظاهر عدم رعايتكم إيّاه أن يحسدَ الأوّل الأخير، كما وقع لليهُودِ أنهمُ حسدوا عيسى عليه السلام حتى زعموا أنهم قتلوهُ وصَلبُوهُ وما دَروا أنه شُبه لهم مثله فقتلوه ونجاهُ الله منهم، ثمَّ رفعهُ إلى السَّماء لينزل آخر الزمانِ حاكمًا بشريعة نبيِّنا محمد ﷺ، ومازال المُحدثُونَ والقدماء من لدُن آدمَ إلى اليوم على هذا لحالِ من حسد الأول الآخر.

ولقد علّمتم يا أهل الكتاب ما كان من اعتداء قابيل على هابيل، مما فصلَّه القرآن الكريم تفصيلاً، بقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾[المائدة: ٢٧].

والمظلومُ من الإخوة هو التقي، لأنهُ صَبر وتحمَّل الأذى، ولم ينتقم لنفسه "وهو حُكْمٌ عامٌ" لا يختص بابني آدم عليه السلام.

ولقد سمعتم أيضًا ما كانَ من أبناء يعقُوب عليه السلام من تآمُرهم على أخيهم يوسُفَ وإلقائهم إيّاهُ في غيابة الجُب، وبقولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]. مما هو مُفصَّلٌ في سورة يوسف تفصيلاً.

وفي تسمية البُوصيري هذا القول منهم إفكًا نظرٌ: فقد جَاءَ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أنه ﷺ قال:

«سَرَق يوسف صنمًا لجده (أبي أمه) من ذهَبٍ وفضة فكسره وألقاه» فعيّره إخوتُهُ بذلك، مع أنَّهُ أرادَ بذلك الخير.

فالذي وقع منه (صُورة سرقة) ولذلك كان في التعبير عَنْها بالإِفْكِ نَظَر.

٢٢- الاحتجاجُ على اليهودِ والنصارى (ب)

(٢٠٧) فتأسُّوا بِمَنْ مَضَى إِذْ ظُلِمْتُمْ ... فَالتَّأَسِّي للنَّفْسِ فِيهِ عَزَاءُ

(٢٠٨) أَتَرَاكُم وفَّيْتُمْ حِينَ خَانُوا ... أَمْ تُرَاكُمْ أَحْسَنْتُمْ إِذْ أَسَاءُوا

(٢٠٩) بَلْ تَمَادَتْ على التجاهُلِ آبا ... ءٌ تَقَفَّتْ آثارَهَا الأَبْنَاءُ

(٢١٠) بيَّنَتْهُ تَوْرَاتُهُم والأَنَاجِيـ ... ـلُ وَهُمْ في جُحُودِهِ شُرَكَاءُ

(٢١١) إِنْ تَقُولُوا مَا بَيَّنَتْهُ فَمَا زَا ... لَتْ بِهَا عَنْ عُيُونِهِمْ غَشْوَاءُ

(٢١٢) أَوْ تَقُولُوا قَدْ بيَّنتهُ فَمَا لِلْـ ... ـأُذْنِ عَمَّا تَقُولُهُ صَمَّاءُ

(٢١٣) عَرَفُوهُ وَأَنْكَرُوهُ وَظُلْمًا ... كَتَمَتْهُ الشَّهَادَةَ الشُّهَدَاءُ

(٢١٤) أَوَ نُورُ الإِلهِ تُطْفِئُهُ الأَفـ ... ـوَاهُ وَهُوَ الذي بِهِ يُسْتَضَاءُ

(٢١٥) أَوَلاَ يُنْكِرُونَ مَنْ طَحَنَتْهُمْ ... بِرَحَاهَا عَنْ أَمْرِهِ الهَيْجَاءُ

(٢١٦) وَكَسَاهُمْ ثَوْبَ الصَّغَارِ وَقَدْ طُلَّـ ... ـتْ دِمًا مِنْهُمْ وَصِينَتْ دِمَاءُ

(٢١٧) كَيْفَ يَهْدِي الإِلهُ مِنْهُمْ قُلُوبًا ... حَشْوُهَا مِنْ حَبِيبِهِ البَغْضَاءُ

(٢١٨) خَبِّرُونَا أَهْلَ الكِتَابَيْنِ مِنْ أَيْـ ... ـنَ أَتَاكُمْ تَثْلِيثُكُمْ وَالْبَدَاءُ

اقتُدوا أيها المسلمون بالماضين الكاملين من أجل ظلم الكُفار إياكم، فالتأسي "على وَجْه العُموم" فيه عَزَاءٌ للنفسِ، وهل يظنكم أهل الكتاب (أيها المسلمون) أنكم أديتم ما عاهدتم الله عليه ، حين خانوا بكتمان الحق، والإعراض عنه؟! ثم يظنُّوكم أحسنتم في اتباع نبيكم ﷺ إذ أساءوا ولم يستمروا على العمل بما جاءتهم به رسلهم؟! بل بدلوه وغيروه، لم يظن أهل الكتاب منكم أيها المسلمون لا هذا ولا ذاك، بل استمر أبناؤهم على التجاهل الموجب لرفض الحق واتباع الباطل، وقفَّى على آثارهم أبناؤهم.

إن التوراة والإنجيل بينا الحق تبيينًا، فاشترك اليهود والنصارى في إنكاره، وهذا الحق من جملته نبوة محمد ﷺ، وعموم رسالته، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[الأعراف: ١٥٧].

وجمع الإنجيل باعتبار الأفراد وكانت (٨٤ إنجيلاً) لأربعة وثمانين عالمًا. فرأى الملك قسطنطيوس اجتنابًا للمشاغبات أن يقتصروا على أربعة، فاختاروُا إنجيل متى ومُرقص ولُوقا ويُوحنا، وهي المتداولة إلى اليوم، وإذا ادعوا أنها لم تبينه فقد دلوا على أنها لم تذهب العشواءَ عَنْ عيونهم، وإذا اعترفوا أنها تُبينُه، فقد سجَّلوا على أنفسهم العناد والحسد، على أن من المحقق أنهم عرفوه، وإنما كان تخلفهم عن اتباعه لمحض العناد، قال الله تعالى: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦].

ومن الظلم أن يكتُم الشاهدونَ الشهادةَ بالحق.

وقد وبخهم البُوصيري عنْهُ بقوله: (أتكْتُمُون ذلك، ونور الإله الذي هو النبوة والرسالة تطفئة ألسنتكم، وكيف يُطْفأ هذا النور الإلهي وهو الذي به يُستضاءُ ظاهرًا وباطنًا؟!).

أيستمرونَ عَلَى ضَلاَلهم وينكرون نبوته، ولا ينكرون من أهلكتهم الحربُ بأسلحتها؟! أي لا ينبغي لهم ذلك، وإنما الواجبُ الرجُوعُ عن الضلال والاعتراف بأنهم إن استمروا عليه أهلكهم ﷻ، كما أهلك آباءهم وأبناءهم وأهاليهم وكساهم ثوب الذل، وأهدر دِماء بعضهم، كبني قريظة، وصانَ دِماء البعض كبني النضير. وإذ اتصف أهل الكتابين بهذه الصفات حق أن يُقال فيهم:

كيف يهدي الله قومًا حشوا قُلُوبهم البُغضَ لحبيبه؟!.

٢٢- الاحتجاجُ على اليهودِ والنصارى (جـ)

(٢١٩) مَـا أَتَـى بالعقيـدَتَيْن كِتَـابٌ ... وَاعْتقـادٌ لانَـص فيـهِ ادعَـاءُ

(٢٢٠) وَالـدَّعَاوَى مَـالَمْ تُقيمُـوا عَلَيْهـا ... بَيِّنَـاتٍ أَبْنَاؤُهـا أَدْعِيَـاءُ

(٢٢١) لَيْتَ شِعْرِى ذِكـر الثلاثـة والـوا ... حِـدِ نَقْـصٌ في عَـدِّكُمْ أَمْ نَـمَاءُ

(٢٢٢) كَيْـفَ وَحَّـدْتُمْ إلهـا نفـى التَّـوْ ... حِيـدَ عَنْـهُ الآبـاءُ والأَبْنَـاءُ

(٢٢٣) أَإلـهٌ مُرَكَّـبٌ مَـا سَـمِعْنَا ... بِإلـهٍ لِذَاتِـهِ أَجْـزاءُ

(٢٢٤) أَلِكُـلٍّ مِـنْهُمْ نَصيبٌ مِـنَ المُلْـ ... ـكِ فَهَـلا تَمَيَّـزُ الأَنْصَـباءُ

(٢٢٥) أَمْ هُـمُ حَللَـوُا بِهَـا تركـه الأَبْـ ... ـدَانِ أَمْ هُـمْ لبعضـهم كُفَـلاَءُ

(٢٢٦) أَهُـوَ الرَّاكِـبُ الحِـمَارَ فيـا عَجْـ ... ـزَ إلـهٍ يَمَسُّـه الإعْيَـاءُ

(٢٢٧) أَمْ جَميـعٌ عـلى الحِـمَار لَقَـدْ جَـ ... ـل حِمَـارٌ بِجَمعِهِـمْ مَشَّـاءُ

(٢٢٨) أَمْ سِـواهُمْ هـو الإلـهُ فَـمَا نِسْـ ... ـبةُ عيسـى إليْـهِ والانـتماءُ

(٢٢٩) أَمْ أَرَدْتُمْ بِهَا للصفاتِ فَلِم خُصَّـ ... ـتْ ثُـلاَثٌ بِوَصْـفِهِ وَثُنَـاءُ

أعلمونا أيها النصارى واليهود، ما منشأ قولكم:

إن الله ثالثُ ثلاثة: الأب والابن ورُوح القُدُس؟

وما منشأ ادعائكم أن نسخ التوراة بالإنجيل يستلزمُ البِدَاءَ؟.

أي ظهور المصلحة في الشيء لله، بعد خفائها عليه تعالى؟.

وفي تفسير الجلالين قولهم (إن الله ثالث ثلاثة)، أي أَحَدُ آلهة ثلاثة، والاثنان عيسى وأمُّه مريم.

- وفي شرح الهمزية للسُّنباطي: أنهم يريدون بالأب: الوجود، وبالابن: العلم، وبروح القدس: الحياة.

- وفي تفسير الخازن الأقانيم (أي الأصولُ ثلاثة):

أقنومُ الأب وهو ذات الله، وأقنُوم الابن وهو عيسى عليه السلام، وأقنوم روح القدس، وهو الحياةُ الحالةُ فيه.

قال البوصيري رحمه الله: والاعتقاد الذي لا نص فيه: دعوى، والدعوى بلا بيِّنة باطلة، فكل اعتقاد لا نص فيه باطلٌ.

ثُمَّ شَرَعَ البوصيري يرد على دَعواهم فقالَ:

ليتني علمتُ سِر هذا التناقُض العجيب، فأنتم تارة تثبتون تعدُّد الإله بقولكم: إن الله ثالث ثلاثة، فتحققون الزيادة. وتارة تُثبتُون عَدَمَ تعدُّدِهِ بقولكم: الله واحدٌ، فتحققون النقص.

ثم تعجب منهم بقولِهِ: كيف وحدتم إلهًا نفى التوحيد عنْهُ الآباءُ والأبنَاءُ اللذانِ أثبتموهُما في دعواكم التثليث؟.

فإن قالوا:هو واحدٌ مركب من ثلاثة أجزاء كل منهم إله...

قُلنا: ما سمعنا بإله لذاتِهِ أجزاء، كل منها إله، لأنه لو وجد لكان الإله متعـــدِّدًا ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وحينئذٍ يُقالُ لَهُم: أَلِكُل واحدٍ نصيب من الملك؟

ولِمَ لَمْ تميز الأنصباءُ حتى تكون دليلاً على صحة زعمكم؟

فإن قالوا: لكل واحدٍ نصيب، ولكن خلطوها. قيل لهم: أتظنون أنهم فَعلوا ذلك لحاجةٍ واضطرارٍ؟

فإن قالوا: نعم. قُلْنا: ذلك يُنافي الأُلوهيَّة.

وإنْ قالُوا: خلطوها، ولكن لا لحاجَة ولا لاضطرار.

قُلنَا: لاَ يُتصورُ وجود شركةٍ يدوم بين أعضائها الاتحاد والوئام عادة، على أن هناك برهانًا آخر: وهو أنَّ المُتواتر عن عيسى عليه السلام أنه كان يركب حمارًا، وحينئذ يقال لكمُ: هل الإله هو الراكب الحمار؟

فإن قلتُم: نَعَمْ. قُلْنا: إن رُكُوبه يستلزم حُدُوثه وتعبه، وذلك يستلزمُ عجزه. وإن قلتم: إن الآلهة الثلاثة جميعًا على الحمار.

قلنا: لقد عظم الحمار المشاء جميعهم. وإن قلتم: إن الإله غيرُ الثلاثة الذين رَكبوا الحمار. قلنا: وما العلاقة بينه وبينهم؟ وإن قُلتم: إنّكم أردتم بالثلاثة التي زعمتم أنّها آلهة، الصفاتِ القائمة بذاتِ الإله. قُلنا: ولم ذلك، والصفات لا تنحصر في اثنتين أو ثلاث. وإن قُلْتُم: إنَّ عيسى هو ابن الله. قُلنا: لم اختص عيسى بذلك، والأنبياء سَوَاء؟ وعلى ذلك فادَّعاء التثليث والبنوة تحكم باطل، لا يقول به عاقلٌ.

obeikandl.com

٢٢- الاحتجاجُ على اليهودِ والنصارى(د)

(٢٣٠) أَمْ هُـوَ ابْـنٌ لله مَـا شَـارَكَتْهُ ... فِي مَعَـانِي البُنُـوَّةِ الأَنْبِيَـاءُ

(٢٣١) قَتَلَتْـهُ اليَهُـودُ فِـيمَا زَعَمْـتُمْ ... وَلأَمْـوَاتِكمْ بِـهِ إِحْيَـاءُ

(٢٣٢) إِنّ قَـوْلاً أَطْلَقْتُمُـوهُ عَـلَى الله ... - تعـالى ذِكْـرًا - لقَـوْلٌ هُـرَاءُ

(٢٣٣) مِثْـلَ مَـا قَالَـتْ اليَهُـودُ - وَكُـلٌّ ... لَزِمتْـهُ مَقَالَـةٌ شَـنْعاءُ

(٢٣٤) إِذْ هُمُ اسْتَقْرَءُوا البَدَاءَ وَكَـم سَـا ... قَ وَبَـالاً إِلَـيهِمُ اسْـتقراءُ

(٢٣٥) وَ أَرَاهُمْ لَمْ يجعَلُـوا الْوَاحِـدَ القَهَّـا ... رَ فِي الخَلْـقِ فَـاعِلاً مَـا يَشَـاءُ

(٢٣٦) جَوَّزُوُا النَّسْـخَ مِثلِ مَـا جَـوَّزُوا ... المَسْـخَ علـيهِمْ لَـوْ أَنَّهـم فُقهـاءُ

(٢٣٧) هُو إلاَّ أَنْ يُرْفَـعَ الحُكـم بِـالحُكم ... وَخلْـقٌ فيـهِ وَأَمـرٌ سَـواءٌ

(٢٣٨) وَلِحُكِـم مِـنَ الزمـان انتِهـاءُ ... وَلِحُكـم مِـنَ الزَّمـانِ ابْتـداءُ

(٢٣٩) فَسَلوهُم أَكـان فِي مَسْـخِهِم نَسْـ ... ـخٌ لآيَـاتِ الله أَمْ إِنْشَـاءُ

(٢٤٠) وَبَـدَاءٌ فِي قَـوْلِهِمْ نَـدِمَ اللهُ ... عَـلى خَلْـقِ آدَمَ أَمْ خَطـاءُ

(٢٤١) أَمْ مَحَـا الله آيَـةَ الليـل ذُكْـرًا ... بَعْـدَ سَـهْوٍ لِيُوجَـدَ الإِمْسَـاءُ

(٢٤٢) أَمْ بَـدا للإلـهِ فِي ذَبْـحِ إِسْـحَا ... قَ وَقَـدْ كَـانَ الأَمْـرُ فِيـهِ مَضَـاءُ

(٢٤٣) أَوْ مَـا حَـرَّمَ اللهُ نِكَـاحَ الأُ ... خْتِ بَعْـدَ التَّحليـلِ فهـو الزِّنَـاءُ

إنّ عيسى عليه السلام كانَ يُحيي موْتاكم بإذْنِ الله، فكيف لا يحفَظ حياتَهُ بإذْنِ الله؟ ففي تصديقكم اليهود شاهِد على سَخَافة عُقولكم، لما في ذلك من التناقضِ الصريح. وإنّ ما وصفتُم به الله - تعالى ثَنَاؤُهُ - من أنه ثالثُ ثلاثة، قولٌ خَطَأ، وذلك مثل دعوى اليهود

أن نسخ التوراة بالإنجيل يستلزم البدلَ، فالتشبيه من حيثُ مُطلق الكفر والفساد، وإن تغاير تفصيل كُل من المقالتين، على أن اليهود لم يقتصروا على إنكارِ نسخ التوراة بالإنجيل، بل قالُوا: لا يجوزُ عَقْلاً ولا سمعًا على الله نسخُ ملةٍ بملةٍ، لأنه يُوهمُ البِدَاء.

قالَ العلامةُ الصَّاوي: وَزَعْمُ اليهودُ أن النسخَ يستلزم البداءَ باطلٌ، لِمَا تقرر أن المصالح الداعية للنسخ ترجِعُ لأحوال المكلفين، وذلك لا يقتضي أن الله ظهر له شيءٌ بعد أن لم يكن، لقيام الدليل العقلي على أن عِلْمَه تعالى محيطٌ بجميع ما كانَ وما يكونُ، وما هو كائنٌ أزَلا، وأَنَّ تصرُّفَهُ في العالم على مُقتضى عِلْمِهِ.

قال البُوصيري: وإني أعلمُ أنّهمُ بذلك – أي بمنع النسخ – لم يعتقدوا أن الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله القاهرُ فوق عبادِهِ، فعال لما يشاءُ، وإلا ثبتَ قهره وعجزه.

وقد شرَعَ البوصيري يُلزمُهُم الحُجة بقولهِ (جوزوا النسخ ... إلخ).. أي أنهم لو كانوا فهماءَ لحكموا بجواز النسخ في الأحكام الشرعية، مثل حكمهم بجواز مسخهم قردة وخنازير، إذْ لا فرْق بينهُما، وقد وقع ذلك التحول في زَمَنِ موسى عليه السلام لما خالفوا في السَّبت ...

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وكيف تمنعُون النسخ، وليس فيه إلاّ رفع حُكْمٍ شرعي، بحكم شرعي آخر؟

فإن جوّزتُم المسخ، وجبَ أن تجوزوا النسخ، وإلا فأنتُم مُعاندُون، وكيف تستبعدون النسخ، ولِكُل حُكم انتهاء، على أن جَوَازَ النسخ أوْلى من جَوَازِ المسخ، لأن الأول في الأحكام، والثاني في الذواتِ.

لقد أرادَ البوصيري أن يرد على اليهودِ، الذين أنكرُوا النسخَ وذلك بدعوى أَنَّهُ يستلزم البَدَاءَ، فاعترض عليهم بخمسة اعتراضاتٍ وجيهة، صَاغَها في خمسة أبيات.

الأولُ: ما جَوابُهُم في جعلهم قردةً بالصُّورة أو بِقُلُوبهم؟ أكانَ في مسخهم نسخٌ

لصورهم الأولى، أو لإدراكهم الأوّل؟ أم إنشاءٌ (أي إيجاد) لصورةٍ جديدة؟ فإن قالُوا بالأَولِ: فقد ناقضوا أنفسُهُم. وإن قالوا بالثاني: فَهُوَ مَكابرةٌ للحِس.

الثاني: أنّهم قالوا: إنّ الله نَدِمَ على خلق آدم. فإنّ ادعوا أن هذا القول عن عَمدٍ وقصدٍ، كان عينُ البداء الذي أنكرُوهُ، لأنَّه يستلزم جهلَ الله تعالى بعواقب الأمُورِ، فكيف يمنعونَ النسخ فرارًا من لازِمِهِ عندهم، وهو البَدَاءُ؟ وإنّ قالُوا إنّهُ خطأ، فيكفيهم هذا الاعتراف الصريحُ في الدّلالة، على غبائهم وسفاهتهم.

الثالث: في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢]. فما جوابُهُم عن المحو؟ أهُوَ واقعٌ أمْ لا؟ وهل وقوعه أصدر عمدا بعد شهرٍ، أمْ صدر عن سهوٍ ابتداءً. وكُل هذه الاعتراضات مفحمةٌ كما لا يخفى.

الرابع: فيما وقع للخليل عليه السلام، فإنَّه أَمرَ بذبح وَلَده. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٧]. أي فلمَّا شرع في ذبحه أمره اللهُ بتركه وفداه بذبح عظيم فما جوابُهُم؟ فإن قالُوا: إنّ الأمر بالفِداءِ وترك الذَّبح نسخ للأمر بالذبح، لزمهُم القول بالنسخ، وإنْ قالُوا: ليس نسخًا لزمهُمُ الجهلُ.

الخامس: أنّ الله أحَلَّ نكاحَ الأخُتِ في زَمَنِ آدَمَ، وحرمه بعدُ، وعدَّهُ زِنا، فما جوابُهُم؟ فإن قالُوا حَرَّمها بعد أن حلَلَها، قلنا لهم: هذا هو النسخُ الذي أنكرتمُوهُ. وإنْ قالُوا: لم يُحللها ولم يحرِّمها، قُلنا لَهُم: هذا عِنَادٌ مَحْضٌ.

٢٢- الاحتجاجُ على اليهودِ والنصارى(هـ)

(٢٤٤) لاَ تُكَـذِّبْ أن اليَهُـودَ وَقَـدْ زَا ... غُـوا عَـنِ الحـقِ مَعْشَـرٌ لُؤَمَـاءُ

(٢٤٥) جَحَـدُوا المُصْـطفى وَآمَـنَ بِالطَّـا ... غُوتِ قَـوْمٌ هُـمْ عِنْـدَهُمْ شُرَفَـاءُ

(٢٤٦) قَتَلُـوا الأَنْبيـاءَ وَاتَّخَـذُوا العِجْـ ... ـلَ أَلاَ إنَّهُـمْ هُـمُ السُّـفَهَاءُ

(٢٤٧) وَسَـفيهٌ مَـنْ سَـاءَهُ المَـنُّ والسَّلْـ ... ـوَى وَأَرضَـاهُ الْفُـومُ وَالْقثَّـاءُ

(٢٤٨) مُلِئَـتْ بالخَبيـثِ مِـنْهُمْ بُطُـونٌ ... فَهْـيَ نَـارٌ طِبَاقُهَـا الأَمْعَـاءُ

(٢٤٩) لَوْ أُرِيـدُوا في حَـالِ سَبْتٍ بِخَـيْرٍ ... كَـانَ سَـبْتًا لَـدَيْهِمُ الأَرْبَعَـاءُ

(٢٥٠) هُـوَ يَـوْمٌ مُبَـارَكٌ قِيـلَ للتّصْـرْ ... يـف فيـهِ مِـنَ اليَهُـودِ اعْتِـدَاءُ

(٢٥١) فَـبِظُلْمٍ مِـنْهُمْ وَكُفْـرٍ عَـدَتْهُمْ ... طيبَـاتٌ في تَـرْكِهِنَ ابْـتلاَءُ

(٢٥٢) خُـدِعُوا بالمُنَـافقينَ وَهَـلْ يَنْـ ... ـفِقُ إلاَّ عـلى السَّـفيهِ الشَّـقَاءُ

(٢٥٣) وَاطمأنوا بِقَوْلِ الأَحْـزَابِ إِخْـوَا ... نِهِـمْ: إنَّـا لَكُـمْ أَوْليَـاءُ

(٢٥٤) حَـالَفوهُمْ وَخَـالفُوهُمْ وَلَمْ أَدْ ... رِ لِمَـاذَا تخَـالفَ الخُلَفَـاءُ

(٢٥٥) أَسْـلِمُوهُمْ لأَوَّلِ الحَشْـرِ لاَ مِيـ ... ـعَادُهُمْ صَـادِقٌ وَلاَ الإبْـلاَءُ

(٢٥٦) سَـكَنَ الرُّعْـبُ والخَـرَابُ قُلُوبًـا ... وَبُيُوتًـا مِـنْهُمْ نَعَاهَـا الجَـلاَءُ

(٢٥٧) وبِيَوْمِ الأَحْـزابِ إذْ زَاغَـتْ الأَبْـ ... ـصَارُ فِـيهِمْ وَضَـلَّتْ الآرَاءُ

أَبان البوصيري عظيمَ لؤمهم، بأنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ، ورسالته، وأقرّوا مَنْ آمنوا بالباطل، وعدُّوهم من شرفائهم، وظاهرُ الأبيات، أنّ الذينَ آمنوا بالطاغوتِ فريقٌ من اليهُودِ، والحقيقة أنَّهُم جميعًا آمنُوا بِهِ، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ (وهم اليهود) يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ (أي الصنم) وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ (أي كل ما عُبدَ من دُون الله)﴾[النساء: ٥١] . وأبانَ عظيمَ لؤمهم بأنهم قتلوا الأنبياءُ كزكريا ويحي، فقد وَرَدَ أنهم قتلوا في يوم واحدٍ سبعين نبيًا، واتخذوا العِجل إلهًا معبُودًا، مع أن السامري هو الذي صاغَهُ أمامهم من الحُلي التي استعارُوها من القبط قبل غرقهم، وأن مَنْ ساءهُ المنُّ والسلَّوى، وأرضاهُ الفوم والقثاء، جدير أن يُعد من السفهاء، الذين سخفت آراؤهم، وانطمست بصائرهم، وكيف وقد ملئت بطونُهُم بما سألوه من الفومِ والقثاء، أو من الحسد والغِل، فأصبحت كُلها نارًا، طباقها الأمعاء، أي كل معى في بُطونهم فوقهُ نَارٌ، فصارت الأمعاءُ طباقًا للنّارِ.

ولَوْ أرادَ اللهُ لليهُودِ في حالِ سَبْتهم الذي فُرِضَ عليهم تعظيمه خيرًا، لجعل زَمَنَ عبادتهم يومًا آخر، مشعرًا باهتدائهم، وهو يومُ الأربعاءِ، الذي خلقهُ اللهُ من النُّورِ المُحقق للهداية، ولكن جعل ميقاتَهم يوم السَّبت، إشعارًا بقطيعتهم، لأن السَّبت في اللغة القطع، كما جعل للنصارى الأحد المؤذِن بوحدتهم وتفردهم عن مواطن الخيرات، كما خصَّ المسلمين بيوم الجمعة، المُشتق من الإجماعِ المُشعر بالتواصل.

على أن يوم السبت في حد ذاته يومٌ مبارك، لأن الله ابتدأ فيه خلق العالم خلافًا لما ذكره اليهودُ من أنه تعالى ابتدأ العالمَ يوم الأحد وأتمه يوم الجمعة، فاستراح يومَ السَّبت، فاستراحوا هم أيضًا فيه، وهو دليل غباوتهم وسفاهتهم، ومع أنه يومٌ مباركٌ فقد عُد تصرَّفهم فيه ببيع أو نحوه تعدّيا وظُلمًا، كان سببًا لمسخ كثير منهم قردة وخنازير، فمُسخت شبابُهم قردة، وشيوخُهُم خنازير، لها أذْنابٌ تتعاوى (تتلوى)، وذلك أنّهمُ لما أُمِرُوا أن يجرِّدُوا يوم السبت للعبادة، اعتدى فيه ناسٌ منهم في زَمنِ داود عليه السلام فاصطادُوا فيه، وكانُوا بأيلة (قرية على جانب البحر في طريق الحاج المصري)، فابتلاهم الله بأن ألهم السمك يوم السَّبت أن يرفع خرطومه إليهم، بحيث لو مدَّوا أيديهم إليه لأخذُوه من غير كُلْفةٍ، وكانت تجتمعُ حيتانُ البحر بجنْب البر شُرَّعًا (أي ظاهرة لهم)،

فإذا مضى السَّبت تفرقت فلم يروا منها شيئًا، فاحتال فريقٌ منهم للتخلُص من اصطيادِ يوم السبت، فيخفروا يوم الجُمعة حُفرًا بجانب البحر، وجعلوا فيها جدَاول من البحر، فصارت تمتلئ سمكًا يوم السَّبت ويأخذونه يوم الأحد، ولما لم يُعاجلوا بالعقوبة اقتدى بهم جماعةٌ منهم، حتى صارُوا قدْرَ الثلثِ من العدد الأول (وهو اثنا عشر ألفًا)، وسكتَ قدرُ الثلث عن النّهى، فاعتزلَهم الثلث الباقي، الذي نهاهُم، وبنوا بينهم حائطًا، فأصبحوا وقد مُسخ الثلث الذي احتال قردة وخنازير، كما مر، ونجا الثلث الذي اعتزلَهم باتفاق، وأمّا الثلث الذي سكت، فقال عنهم ابن عباس رضي الله عنهما :

(ما أدرِي ما فعل الله بالساكتة، نجاها، أم مسخها؟. فبظلمهم وكُفرهم أُمروا أن يتركُوا الطيبات من الرزق ابتلاءً لهم. قال تعالى:﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] .

وقد خدعهُم المُنافقون من الأوّسِ والخزرج الذينَ قهرهُم الإسلام، فأظهروه، واتخذُوهُ وقاية لهم من القتل، مع بقائهم على كُفرهم باطنًا، وكانَ هؤلاءِ مع يهودِ المدينة وما قرُب منها باطنًا، وكانوا يدسونَ لهم المكر والخديعة، وكانَ أحبارُ اليهود هم الذين يتعنتونَ على رسول الله ﷺ.

ثم قال البوصيري رحمه الله: ولا ينفق الشقاء (أي يزوج) إلا على السُّفهاء، أو لا يُنفق (أي يُبذَل) الشقـاءُ إلا على السُّفهاء وكانَ من نتائج هذا الخداع أنّهم آمنُوا بقول طوائف من العرب: (إنّا مُوَالونَ لكم ومُتَفقونَ على حربِ مُحمد)، على أن الأحزاب الذينَ حالفوا اليهُودَ وعاهدوهُم على ذلك خالَفُوهُم، فرحلوا عنهم وأسلموهم للنبي ﷺ حتى قتلهم عن آخرهم.

وقوله: ولَمْ أدرِ ... إلخ، مِن تجاهل العارف، لأجل إغراءِ السامع على البحثِ عن سببِ ذلك، وإنْ كانَ ظاهِرًا، وهُوَ أن الله أرَادَ خذلانَهمُ بتفريق كلمتهم، واستئصال جَمعهم، ولقد كانَ انخداع اليهود بالمُنافقينَ سببًا في إجلائهم من الحجازِ إلى الشّام،

وبذلك لَمْ يصدُقوا في ميعادهم ولا خلفهم.

أمّا البيت التالي: (سكَنَ الرُّعْبُ والخَرَابُ بُيُوتًا ... إلخ)، فمبني على وقعة بني النضير...

وحاصلُها: أن النبي ﷺ خَرَجَ إليهم يستعينهم في دية قتيلين، قتلهما بعضُ حُلفائهم، فأظهروا له الإجابة ثم تواعَدُوا. (وهو جالسٌ إلى جنْبِ جدَار لبعض بُيوتهم) على أن يصعد واحدٌ ويُلقى عليه صخرة ليستريحُوا منه، فأخبره جبريل عليه السلام، فرَجَعَ إلى المدينة، فأمَرَ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، فسارَ وحاصرهم خمسة عشر يومًا، فألقى الله الرُّعبَ في قُلُوبهم، فصارُوا يخربُونَ بيُوتَهُم من داخلٍ، والمسلمون من خارجٍ، ثمَّ نَزَلُوا على حُكمه ﷺ، فحكم عليهم أن يخرجوا وَلاَ يأخذ كل واحدٍ منهم من مالِهِ إلا حِمْل بعيرٍ، ولا يأخذُوا السلاح فلحقوا بخيبر، ثم إلى الشام على ستمائة بعير.

والبيت الذي يليه (وبيوم الأحزاب)... يشير إلى وقعة بني قريظة، المبنية على نقض رئيسهم كعب، عهد رَسُولِ الله ﷺ ، الذي سَارَ إليهم في ثلاثة آلافٍ، وحاصرَهم خمسة وعشرين ليلة، مما أفضى إلى نُزُولهم على حُكم سعد بن مُعاذٍ سيد الأوسِ، وكانُوا حُلفاءَهُ في الجاهلية، فحكّمه ﷺ فيهم، فحكم بقتل رجالهم، وقسم أموالهم، وسبي ذراريهم.

فأخذت رجالهم في حبالٍ، وكانوا ستمائة، وقيل سبعمائة، فأدخلوا المدينة وحُفرت لهم حُفيرةٌ، وأمر رسُولُ الله ﷺ عليًا رضي الله عنه بضربِ أعناقهم، وأُلقوا في الحُفيرة.

٢٢- الاحتجاجُ على اليهودِ والنصارى(و)

(٢٥٨) وتَعَـدَّوْا إلى النبـي حُـدُودا ... كَـانَ فيهَـا عَلَـيْهِمُ العُـدْواءُ

(٢٥٩) وَنَهَـتْهُمُ وَمَـا انْتَهَـتْ عَنْـهُ قَـوْمٌ ... فأُبِيـدَ الأَمَّـارُ وَالنَّهَـاءُ

(٢٦٠) وَتَعـاطَوْا في أَحْمَـد مُنْكَـرَ القَـوْ ... لِ وَنُطْـقَ الأَرازل العَـوْرَاءُ

(٢٦١) كُل رِجْسٍ يزِيـدُهُ الخُلُـقُ السُّـو ... ءُ سَـفَاهًا والمِلَّـةُ العَوْجَـاءُ

(٢٦٢) فانْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ القَـوْ ... مِ وَمَـا سَـاقَ للبَـذِي البَـذَاءُ

(٢٦٣) وَجَـدَ السَّـبَ فِيـهِ سُـمًّا وَلَمْ يَـدْ ... رَ إِذِ المِـيمُ في مَوَاضِـعَ بَـاءُ

(٢٦٤) كَـانَ مِـنْ فِيـهِ قَتْلُـهُ بَيَدَيْـهِ ... فَهُـوَ في سُـوءِ فِعْلِـهِ الزَّبَـاءُ

(٢٦٥) أَوْ هُوَ النَّحْلُ قَرْصُهَا يَجْلِبُ الحَـ ... ـتْفَ إِلَيْهَـا وَمَـا لَـهُ إِنْكَـاءُ

جاوزَ الكفار حدودهم التي سنها لهم رسول الله ﷺ، فكان في مجاوزتها بُعدُهم عن النجاة، وفي ذلك تلميح لقولهِ تعالى: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ونهاهم قومٌ عن مخالفته وإيذائه، فلم ينتهوا، وأمرهم قوم بذلك، ونهوهم عن اتباعه، فأهلك اللهُ الذين أمرُوا والذينَ نهوْا، وانطلقتْ ألسنتهم فيه بالقوْل المنكر، فقالوُا: ساحرٌ، كاهِنٌ، مجنونٌ، والأخسَّاءُ والأراذلُ لا ينطقون إلا بفحش القولِ، وقد اجتمع فيهم الخُلُقُ السُّوءُ والتمسك بالملة الباطلة، فتضاعفت سفاهتهم، فانظروا إلى مصيرهم ومآلهم، وما جلب إليهم بذَاؤهم، فقد كان في سب النبي ﷺ داءٌ مُهلِكٌ، ولا

غرابة، فإن الميمَ قد تُقلب باءً، فإذا أرادوا أن يقُولوا: ما اسمُك قالُوا "على لُغة مازن": "بااسمُكَ" فكان هذا البذيء تقتله نفسه بما صدرَ منْهُ من ألفاظِ السَّبِ، فإن الزَّباء ملكة الجزيرة تناولتْ خاتمًا مسمُومًا فمصته وقالت: "بيدي لا بيد عمرو" وقصتها مشهورة، والنحل تقرصُ فتقتل نفسها، على أن قرْصَها لا يقتل الْملسوع، ولا يجرحُهُ، ولا يُؤثر فيه تأثيرًا بليغًا.

obeikandl.com

٢٣- فَتْحُ مكة وعفْوُهُ ﷺ عن أعدائه

(٢٦٦) صَرَعـتْ قَوْمَـهُ حَبَائِـلُ بَغْـي ... حَـدَّهَا المكْـرُ مِـنْهُمُ وَالـدَّهَاءُ

(٢٦٧) فَـأَتَتْهُمْ خَيْـلٌ إلى الحَـرْبِ تَخْتَـا ... لُ وَلِلْخَيْـلِ في الـوَغى خُـيلاَءُ

(٢٦٨) قَصَدَتْ فيهمُ القنا فقوافي الط ... ـعْن مِنْهَـا مَـا شَـاهَا الإبْطَـاءُ

(٢٦٩) وَأَثَـارَتْ بـأَرْضِ مَكْـةَ نَقْعًـا ... ظُـنّ أَنَّ الغُـدُو مِنْهَـا عِشَـاءُ

(٢٧٠) أَحْجَمَـتْ عِنْـدَه الحُجُـونُ وَأَ ... كْدَى عند إعْطائه القليلَ كَـداءُ

(٢٧١) وَدَهَـتْ أَوْجُهًـا بِهَـا وَبيُوتًـا ... مُـلَّ مِنْهَـا الإكْفَـاءُ والإقْـواءُ

(٢٧٢) فَـدَعَوْا أحْلـم البريـة والعَفْـ ... ـوُ جَـوَابُ الحليم والإغْضَـاءُ

(٢٧٣) نَاشَدُوهُ القُرْبَى التي مِنْ قُـرَيشٍ ... قَطعَتْهَـا الـتِّراتُ والشَّـحْنَاءُ

(٢٧٤) فَعَفَـا عَفْـوَ قَـادِرٍ لَمْ يُنغصْـهُ ... عَلَـيْهِمْ بِـمَا مَضـى إغْـرَاءُ

(٢٧٥) وَإِذَا كَـانَ الْقَطْـعُ وَالْوَصْـلُ لله ... تَسَـاوَى التَقْريـبُ والإقصـاءُ

(٢٧٦) وَسَـواءٌ عَلَيْـهِ فِـيمَا أَتَـاهُ ... مِـنْ سِـوَاهُ المَـلاَمُ والإطْـرَاءُ

(٢٧٧) وَلَـوْ أَنَّ انتقامَـهُ لِهَـوى النفْـ ... ـسِ لـدامَتْ قطيعـةٌ وجَفَـاءُ

(٢٧٨) قَـامَ لله في الأُمُـورِ فـأرضى ا ... لله مِنْـهُ تَبَـايُنٌ وَوَفَـاءُ

(٢٧٩) فِعْلُـهُ كُلُـهُ جَميـلٌ وَهَـلْ يَنْـ ... ـضَحُ إلاَّ بِـمَا حَـوَاه الإنَـاءُ

(٢٨٠) أَطْـرَبَ السَّـامِعينَ ذِكْـرُ عُـلاهُ ... يَـا لَـرَاح مَالَـتْ بِـهِ النُّـدَمَاءُ

(٢٨١) النَّبـيُّ الأُمـيُّ أَعْلَـمُ مَـنْ أَسْـ ... ـنَدَ عَنْـهُ الـرُّوَاةُ والحُكَـمَاءُ

استعمل كُفَّارُ مكة مع النبي ﷺ المْكر والدّهاء، وبغوا عليه، فحاق بهم ما كانوا يكسبُون ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وقد ترتب على ذلك أنْ نهَض النبي ﷺ لفتح بلدهم، وأجلب عليه بخيله ورجله (وللحياة في ساحة الهيجا اختيال وإعجاب) وأخذوا يطعنونهم في أبدانهم برماحهم طعنات مُؤثراتٍ، مجردةٍ من التكرار في محل واحدٍ، أي لم تَحل طعنة لاحقةٌ محل طعنة سابقة، لأن ذلك يدل على قصور المُجاهد.

وقد وصف البوصيري غزوة مكة فقال: إن تلك الخيول أثارت بأرض مكة من الغبار الشديد ما أظلم الجو، وخُيِّلَ أنَّ وقت الضُّحى وقتُ العشاءِ، مما دفع أهل الحجون إلى الكف عن القتال، وأهل كُدي أيضا بعد قتالهم قليلاً أهلكت تلك الخيُول أناسا، سئم منها الإكفاء، وهو الترامي على غيرهم للاحتماء بهم، وبيوتًا سئم منها الإقواء، وهو خلوها من السكان، ولما دخلهم الرعب، طلبوا منه ﷺ أن يعفو عنهم، وألاَّ يعاقبهم بما مضى من إيذائهم إيَّاهُ، واعتدائهم عليه، فأجابهم إلى العفو قائلاً:

«لا تثريب عليكم اليوم» وعادةُ الحليم أنْ يُغضي عن الإساءة، وقد توسلُوا إليه فأقسمُوا بالقرابة التي بينهم وبينه، أن يعفو عنهم، تلك القرابة التي قطع التراثُ حبالها، وقطع التباغض أوصالها.

بتلكَ المُناشدة، عفا النبي ﷺ عنهم عفو قادر على الانتقام منهم، لأنَّه كان متمكنًا من استئصالهم، ولم يكدر ذلك العفو إغراء سُفهائهم وجُهالِهم، فيما مضى، وإذا كان القطْعُ والوَصل ابتغاء مرضات الله، فالتقريبُ للأقارب والأباعد، والاقتضاء لهؤلاء وأولئك سواءٌ، وقد استوى عندهُ قدْحُ الغير وذمه، ولو أن انتقامه لهوى النفس الأمَّارة بالسُّوء، لدامت القطيعة والجفاء، ولكنه قطعهم، لما قطعوا ما أمر الله به أن يوصل، ووصلهم، عندما امتثلوا أوامر الله، غير ناظر لما صدر منهم في الماضي، نهض ﷺ لا لهوى ولا لحظ ولا لرحم ولا لصداقة، فأرضى الله نفورُه من أعدائه ووفاؤه لأوليائه، فعله كله جميلٌ، لصدوره عن قوانين الاعتدال، وموازين الكمال، وما ينضح الإناءُ إلا

بما فيه، فمن امتلأ إناء قلبه خيرًا، كانت أفعاله الشبيهة بما ينضحُهُ الإنَاءُ، كُلها خيرٌ، والعكس بالعكس، وهذا يُلمحُ للمثل السائر (وكل إناءٍ بما فيه ينضحُ) وقد أطرْب ذكرُ علاه السامعين، فكأنه الشمول، يرنحُ أعطاف الشاربين، فهو النبي الأُمي، الذي لا يكتب ولا يقرأ، أعلمُ الأنبياء والمُرسلين، الذين روى عنهُم الرُّواة والعلماء، الذين يضعونَ الشيء في محله.

obeikandl.com

٢٤- حج البوصيري وزيارته قبر المصطفى ﷺ

(أ) وَصْفُ مسيرِهِ من مصر إلى مكة المُشرَّفة

(٢٨٢) وَعَدَتْني ازْدِيَارَهُ العامَ وَجْنَا ... ءُ وَمَنَّتْ بِوَعْدِهَا الْوَجْنَاءُ

(٢٨٣) أَفَلاَ أَنطوي لَهَا في اقتضائيـ ... ـهِ لِتُطْوى مَا بَيْنَنَا الأفْلاَءُ

(٢٨٤) بِأُلُوفِ البطْحَاءِ يُجْفلهُا النّيـ ... ـلُ وَقَدْ شَفَّ جَوْفَهَا الإظْمَاءُ

(٢٨٥) أَنْكَرَتْ مِصْرَ- فَهِيَ تَنْفِرُ مَا لاَ ... حَ بِنَاءٌ لَعَيْنِهَا أَوْ خَلاَءُ

(٢٨٦) فَأَقْضَتْ عَلى مَبَارِكِهَا بُرْ ... كَتُهَا فَالبُوَيْبُ فالخضْرَاءُ

(٢٨٧) فَالْقِبابُ التي تَليها فبئرُ النَّخْـ ... ـلِ والرَّكْبُ قَائِلُونَ رِوَاءُ

(٢٨٨) وَغَدَتْ أَيْلَةٌ وِحِقْلٌ وَقُرٌّ ... خَلْفَهَا فالمَغَارَةُ الفَيْحَاءُ

(٢٨٩) فعيونُ الاقتصابِ يتْبَعها النَّبْـ ... ـكُ ويتلو كِفافَةَ العَوْجَاءُ

(٢٩٠) حَاوَرَتْهَا الحَوْرَاءُ شَوْقًا فينْبُو ... عُ فَرَقَّ الينْبوعُ والحَوْرَاءُ

(٢٩١) لاَحَ بِالدَّهْنَوِيْنِ بَدْرٌ لَهَا بَعْـ ... ـدَ حُنَينٍ وَحَنَّتْ الصَّفْرَاءُ

(٢٩٢) وَنَضَتْ بَزْوَةٌ قَرَابِغُ فالجُحفَةُ ... عَنْهَا مَا حَاكَهُ الإنضَاءُ

(٢٩٣) وَأَرَتْهَا الخلاصَ بِئْرُ عليٍّ ... فَعِقَابُ السَّويقِ فالخلصاءُ

(٢٩٤) فهِيَ مِنْ مَاءِ بِئْر عُسْفَانَ أو مِنْ ... بَطْنِ مَرّ ظَمآنَةٌ خَمصاءُ

(٢٩٥) قَرَّبَ الزَّاهِرَ المساجدُ مِنْهَا ... بِخُطاها فالبُطْءُ مِنْها وَحَاءُ

(٢٩٦) هذه عِدَّةُ المنازل لا ما ... عُدَّ فيه السِّمَاكُ والْعَوَّاءُ

(٢٩٧) فكأني بِها أُرَحَّلُ مِنْ مَكـ ... ـةَ شَمْسًا سَمَاؤُهَا البَيْدَاءُ

(٢٩٨) مَوْضِعُ البيتِ مَهْبطُ الوَحْي مأوى الرُّسل حَيْثُ الأنوارُ حَيثُ البَهَاءُ

(٢٩٩) حَيْثُ فَرْضُ الطَوافِ والسَّعيُ والـ ـحَلْقُ وَرَمْي الجِمارِ والإهـدَاءُ

(٣٠٠) حَبَّذَا حبَّذا مَعَاهدُ مِنْهَا لَمْ يُغَير آياتهن البِلاءُ

(٣٠١) حَرَمٌ آمِنٌ وبيتٌ حَرَامٌ وَمَقامٌ فيه المُقامُ تَلاَءُ

(٣٠٢) فَقَضَينا بِهَا مَنَاسِكَ لاَ يُحْمَدُ إلاَّ في فِعْلِهِنَ القَضَاءُ

يقولُ البوصيري رحمه الله إن الناقة وعدتني بزيارة النبي ﷺ، وأنجزت ما وعدتْ، وحينئذ لا يليق بي أن أترك تلك الزيارة فلا أركبُها ركوبا يساعدها على سُرعة السَّير بسبب طلبي منْها ما طلبت، ليطوي السَّير المسافات والمفازات الواسعة حالة كوْنِهَا بيننا، ثمَّ أخذ يصفُ الناقة بأنها من اللواتي ألفن الصحراء، وألفن البطحاء، فنيلُ مصرَ يُزعجها ويقلقها، على ما بها من شدةِ العطش، وكُلما شاهدتْ مصرَ نفرتْ منها، وكُلما جاوزَت بنَاءً أو خلاءً نفرت منْهُ، لشدة شوقها إلى الوصُول إلى مكة المُشرفة، ثم أخذ يعدُّ منازل الحج (الثمانية والعشرين)...

فقال: سارت الناقة ففاضت على مواقع بُروكها... هذه المنازل هي:

البُرْكة – والبُويب – والخضراء – فالقباب – فبئرُ النخل – فأيلة – وحِقل – وقرٌ – فالفارة الفيحاءُ – فعيون الأقصاب – فالنبك – وكفافة القوجاء – والحوراء – وينبوع (الشهير بينبُع) – فالدهناوان – وبدر – وحنين – والصفراء – وبزوة – ورابغ – والجُحفة – وبئر علي – وعقاب السويق – والخلصاء – وبئرُ عُسفان – وبطنُ مرَّ – والزاهر – والمساجدُ....

ثُم قال: إن هذه المنازل التي عدها هي منازل الحج الثمانية والعشرون، لا منازل القمر الثمانية والعشرون التي فيها السماكُ الأعزلُ والعوَّاءُ.

ثُمَّ قال: فكأني وأنا على هذه الناقة أُرَحل، أي أُنقلُ من مكة إلى مُزدلفة إلى عرفة إلى منى حال كوْنِها كالشمس في رفعة مقصدها، وفي قوة سيرها، لِمَا عندَها من عظيم الشوقِ، ثمَّ وصَفَ مكة المُشرفة، بأنها موضعُ البيتِ، مهبط الوحي، مأوى الرسل، حيثُ الأنوار، حيثُ البهاءُ، حيثُ فرضَ الطواف والسَّعي، والحلقُ ورمي الجمار، والإهداء.

ثم مَدَحَ البوصيري تلك المعاهد الطاهرة التي لم يغير تقادم العهد معالمها الباهرة، ولم يُؤثر في مشاهدها الفاخرة.

ثُمَّ وصَفَ الكعبة بأنها حَرَمٌ آمِنٌ وبيتٌ حرام ... واقتبس ذلك من قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧].

ونَوَّه بمقامِ الخليل عليه السلام، وصرَّح بأنَّ الإقامة فيه جوارٌ لِمحَل تنزل الرَّحمات، وإقالةِ العثَرات... وهو مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران:٩٧].

ثم أعلن سروره في البيت الأخير، الذي ضمنهُ أنه هو وأصحابه قضوا بمكة المكرمة مناسك الحج التي لا يحمدُ الأداءُ إلاَّ بفعلهن كلهن.

-٢٤-

(ب) وَصْفُ مسيره من مكة المكرَّمة إلى المدينة المنورة

(٣٠٣) وَرَمَيْنَا بِهَا الفِجَاجَ إلى طَيْـ ... ـبَةَ وَالسَّيْرُ بِالمطَايَا رِمَاءُ

(٣٠٤) فَأَصَبْنَا عَنْ قَوْسِهَا غَرَضَ القُرْ ... بِ وَنِعْمَ الخَبِيئَةُ الكَوْمَاءُ

(٣٠٥) فَرَأَيْنَا أَرْضَ الحَبِيبِ يغَضُّ الطرْ ... فَ مِنْهَا الضِيَاءُ واللَّأْلاَءُ

(٣٠٦) فَكَأَنَ البَيْدَاءَ مِنْ حَيْثُ مَاقَا ... بَلَتْ الْعَيْنَ رَوْضَةٌ غَنَّاءُ

(٣٠٧) وَكَأَنَ البِقَاعَ زَرَّتْ عَلَيْهَا ... طَرَفَيْهَا مُلاَءَةٌ حَمْرَاءُ

(٣٠٨) وَكأَنَّ الأَرْجَاءَ ينْشُرُ نَشْرُ المِسْـ ... ـكِ مِنْهَا الجُنُوبُ وَالجِرْبِيَاءُ

(٣٠٩) فَإِذَا شِمْتَ أَوْ شَمَمْتَ رُبَاهَا ... لاَحَ مِنْهَا بَرْقٌ وَفَاحَ كِبَاءُ

(٣١٠) أَيَّ نُورٍ وَأَيَّ نَوْرٍ شَهِدْنَا ... يَوْمَ أَبْدَتْ لَنَا القِبَابَ قُبَاءُ

(٣١١) قَرَّ مِنْهَا دَمْعِي وَفَرَّ اصْطِبَاري ... فَدُمُوعي سَيْلٌ وَصَبْري جُفَاءُ

(٣١٢) فَتَرَى الرَّكْبَ طَائِرِينَ مِنَ الشَّوْقِ ... إلى طيبَةٍ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

(٣١٣) وَكَأَنَّ الزُّوَارَ مَا مَسَّتْ البأْ ... سَاءُ مِنْهُمْ خَلْقًا وَلاَ الضَّرَّاءُ

(٣١٤) كُلُّ نَفْسٍ مِنْهَا ابْتِهَالٌ وسؤْلٌ ... وَدُعَاءٌ وَرَغبَةٌ وَابْتِغَاءُ

(٣١٥) وَزَفِيرٌ تظُنُّ مِنْهُ صُدُورًا ... صَادِحَاتٍ يَعْتَادُهَن زُقَاءُ

(٣١٦) وَبُكَاءٌ يغريه بالعين مَدٌّ ... وَنَحيبٌ يحثُّهُ اسْتِعْلاَءُ

(٣١٧) وَجُسُومٌ كأَنَّمَا رَحَضَتْهَا ... مِنْ عَظِيم المهابة الرُّحضَاءُ

(٣١٨) وَوُجُوهٌ كأَنَّمَا أَلْبَسَتْهَا ... مِنْ حَيَاءٍ أَلْوَانَهَا الحِرْبَاءُ

(٣١٩) وَدُمُوعٌ كأَنَّمَا أَرْسَلَتها ... مِنْ جُفُونٍ سَحَابَةٌ وَطْفَاءُ

(٣٢٠) فَحَطَطْنَا الرِّحَال حيث يُحط الـ ـــوِزْرُ عنَّا وَتُرْفَعُ الحَوْجَاءُ

(٣٢١) وَقَرَأْنَا السَّلاَمَ أكرَمَ خلْقِ الله مِنْ حَيْثُ يُسْمعُ الإقْراءُ

(٣٢٢) وَذَهِلنَا عِنْدَ اللقاءِ وَكَمْ أَذْ هَل صَبًّا من الحبيبِ لِقاءُ

(٣٢٣) وَوَجَمْنا مِنَ الْمَهَابَةِ حتى لاَ كَلاَمٌ مِنّا وَلاَ إيماءُ

(٣٢٤) وَرَجَعْنَا وللْقلُوبِ التِفَاتَا تٌ إلَيْهِ وَلِلْجُسُوم انْثناءُ

(٣٢٥) وَسَمَحْنا بِمَا نُحِبُّ وَقَدْ يَسْـ ـمَحُ عِنْدَ الضرورَةِ البُخَلاءُ

بعد أنْ أدّينا مناسك الحج بمكة المكرمة، شَخَصْنا إلى المدينة المنورة ابتغاء أن نحظى بمشاهدة أنوار النبي ﷺ، فرمينا بتلك الناقة الطريق الموصِّلة إليها، فوصلناها بسلام، ونعمت تلك الناقة التي بلغناها المُرام، فرأينا أرض الحبيب ﷺ مجللةً بالنُّور الحسي والمعنوي، والبرق اللامع على صفحاتها، المشار به إلى مواهب الحق الغامضة على الزائرين، فكأن البيداء (أي ذلك المحلُ المشهور بأبيار علي) روضة حالية بالعشب والنبات والأزهار والثمار، وكأن الجنوب والجربياء تذيعُ روائح المسكِ في تلك الأرجاء، وكأن البقاع حول المدينة، مكسوة بملاءَة، بما غشيتها من الأنوار والأضواء.

فإذا نظرت رُباها لاح منها ما يشبه البرق من النُّوار (جمع نُوارة وإذا شممت رباها تضوع منها أريج الأزهار، أنوارٌ لامعةٌ (جمع نورٍ) وأنوار ساطعة (جمع نورٍ)، شهدناها يومَ وصلنا إلى (قباءَ).

وأظهرت لنا تلك القباب العالية، ففر منها دمعي من فرحي بالوصول إلى الرسول ﷺ، وذهب اصطباري، فكانت دموعي كالسَّيل، وصبري كالزبد الذي يذهب به السَّيل، فكنت ترى أيها المُخاطب الركب جادين في السير، مما يخامرُهُم من الشوق إلى طيبة، رافعين أصواتَهم، وصلناها، وكأن أبداننا لم تمسها السرَّاء أو الضراءُ.

وصلناها، وكل نفسٍ منها تضرُّع إلى الله أن يُقيل عثراتها، وتوسل بأحب خلق الله إليه، ورغبته فيما عند الله من جزيل الثوابِ، وزفيرٌ تطن منه الصدور، كالطيورِ المصوتات، اللاتي يعتادهن التصويت بشدَّة، وبُكاءٌ يحمله على ملازمته العين، سيلٌ من الدموع، ونحيبٌ يحضهُ، ويزيدُ فيه علو الصوتِ.

وقد تأثر الزائرون من عظيم المهابة، فتصببوا عرقًا، فكأن جسومهم غسلتها الحمى بما أفرزته من العرق، وكأن وجوههم، لشدة ما خامرهم من الحياء منه ﷺ عند القدوم عليه، تلوَّنت بألوان الحِرباء، وكأن دموعهم مرسلةٌ من سحابة وطفاء. حططنا ما استصحبنا من الأمتعة والأوعية في ذلك المكان الطاهر، الذي يُحط فيه عنا الإثم بشفاعته، وترفعُ عنا الحاجة بعنايته.

وهُناك أقرأنا السلام أكرم خلق الله ﷺ، من حيث يُسمعُ الإقراءُ. ففي الأخبار: (ما من أحد سلم عليَّ عند قبري، إلا رد اللهُ عليَّ روحي حتى أرُد عليه السلام).

وقد غبنا عن إحساسنا عند اللقاء، لما استولى علينا من سُبحاتِ (أي أنوار) الجلال، ونسماتِ ذلك الجلال...

ولا غرابة في هذا الذهول، فطالما أذهل المُحب لقاءُ الحبيب، وقد لابسنا الوُجُومُ (السُّكات) من جرَّاء مهابته، فعجزنا عن العبارة والإشارة، ورجعنا من المدينة المنوَّرة إلى ديارنا المصرية، وقلوبنا تلتفت إليه ﷺ، وجسومُنا تنعطف ميلاً إلى البقاء في تلك الحضرة النبوية على الدوامِ، وجدنا بما نُحبُّ دوامَهُ من البقاء، أي وعدنا إلى بلادِنا مجبورين، متأثرين منَ البُعد عن سيد المُرسلين ﷺ، فلا عجب فإن:

(الضرورات تبيحُ المحظورات).

٢٥- مدْحُهُ ﷺ والثَّناءُ عليه

واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتهِ (أ)

(٣٢٦) يَا أَبَا الْقَاسِمِ الـذي ضِـمنَ إقْسَـا ... مِـي عَلَيْـه مَـدْحٌ لَـهُ وَثَنَـاءُ

(٣٢٧) بِـالعُلُومِ التـي عليـكَ مـنَ الله ... بِـلاَ كاتـبٍ لَهَـا إمْـلاَءُ

(٣٢٨) وَمَسـير الصَّـبا بِنَصْرِكَ شـهْرًا ... فَكـأَنَّ الصَّـبا لَـدَيْكَ رُخَـاءُ

(٣٢٩) وَعـلِيٌّ لَمَّـا تَفَلْـتَ بعينَـ ... ـيْهِ وكِلْتَاهُمَـا مَعًـا رَمْـدَاءُ

(٣٣٠) فَغَـدَا نَـاظرًا بعينـي عُقَـابٍ ... في غَـزَاةٍ لَهَـا الْعُقَـابُ لِـوَاءُ

(٣٣١) وَبِرَيْحَـانَتَيْنِ طِيـبُهما منْـ ... ـكَ الـذي أُوْدِعَـتْهُمَا الزهْـرَاءُ

(٣٣٢) كَنْـتَ تـؤويهِمَا إليْـكَ كَـمَا آ ... وَتْ مِـنَ الخَـطِّ نُقطتيهـا اليَـاءُ

(٣٣٣) مِـنْ شَـهيدَيْنِ لَـيْسَ يُنْسيني الْـ ... ـطَّفُّ مُصَـابَيْهِمَا وَلاَ كَـرْبلاَءُ

(٣٣٤) مَـا رَعَـى فـيهِمَا ذِمَامَـكَ مَـرْءُو ... سٌ وَقَـدْ خَـانَ عَهْـدَكَ الرُّؤَسَـاءُ

(٣٣٥) أَبْـدَلُوا الـوُدَّ وَالحَفيظَـةَ في الْقُـرْ ... بَـى وَأَبْـدَت ضِـبَابَهَا النافقَـاءُ

(٣٣٦) وَقَسَـتْ مِـنْهُمُ قُلُـوبٌ عَـلى مَـنْ ... بَكَـتْ الأَرْضُ فَقْـدَهُمْ وَالسَّـمَاءُ

(٣٣٧) فَـابْكِهِمْ مَـا اسْـتَطَعتَ إنّ قَـليلاً ... في عظـيمٍ مـنَ المُصَـابِ البُكَـاءُ

(٣٣٨) كُـلُّ يَـوْمٍ وَكُـلُّ أَرْضٍ لِكَـرْبِي ... مِـنْهُمُ كَـرْبِلاَ وَعَاشُـورَاءُ

(٣٣٩) آلَ بَيْـتِ النبـي إن فـؤادِي ... لَـيْسَ يُسْـلِيهِ عَـنْكُمُ التَّأْسَـاءُ

(٣٤٠) غَـيْرَ أني فوَّضـتُ أمْـري إلى الله ... وَتَفويضـي الأُمُـورَ بَـرَاءُ

(٣٤١) رُبَّ يَـوْمٍ بكَـرْبلاءَ مُسـيءٍ خَفَّفَـتْ بَعْـضَ وِزْرِهِ الـزَّوْرَاءُ

(٣٤٢) وَالأعَـادي كَـأن كُـلّ طَـريحٍ مِـنْهُم الـزَّقُّ حُـلَّ عَنْـهُ الوِكَـاءُ

(٣٤٣) آلَ بَيْتِ النبي طِبْـتُمْ فَطَـابَ الْـ ـمَدْحُ لي فـيكُمْ وَطَـابَ الرثَـاءُ

(٣٤٤) أنـا حَسَّـانُ مَـدْحِكَمْ فـإذَا نُحْـ ـتُ عَلَـيْكُمْ فـإنني الخنْسَـاءُ

(٣٤٥) سُـدْتُمْ النَّـاسَ بِـالتُّقى وَسِـوَاكُمْ سَـوَّدَتْهُ البَيْضَـاءُ وَالصَّـفْرَاءُ

كما أقسمُ عليَّك بالريحانتين (الحسن والحسين) اللـذين استمدا الطيب منكَ، واللذين أودعتهما ابنتك فاطمة الزهراء، فقد كُنتَ يـا رسـول الله تضـمُّهما إليـك لمزيـد محبتك لهُما، وشفقتك عليهما ...

أخرج الترمـذي والطـبراني: (هـذان ابنـاي، وأمُهـما ابنتـي، اللهـم إني أحـبُّهُما، فأحبهما، وأحب من يُحبهما).

- **أمَّا شهادة الحسن**، فسببها أن يزيد بـن معاويـة أوحـى إلى زوجـة الحسـن جعـدة الكِندية أن تسمَّه، ويتزوجهُا يزيد، وبذل لها مائة ألف درهـم، ففعلـت، فمـرض ﷺ أربعين يومًا ومات، فبعثت ليزيد بما وعَدَها فأبى ...

- وُلِدَ الحسن بالمدينة في نصف شعبان سنة ثلاثٍ من الهجـرة، وتـوفي سـنة خمسـين (على الأشهر) ودُفن بالبقيع بجانب أمه.

- **وأما شهادة الحسين**، فسببُها أن يزيد لما استخلف سنة ستين أرسل لعامله بالمدينـة أن يأخذ لهُ البيعة على الحسين، فرحل الحسين إلى مكة، فأرسل إليه أهـل الكوفـة أن يأتيهم ليبابعوه، فنهاه ابن عباسٍ، وبيّنَ له غدرهم وقتلهم لأبيه ...

- فأبى وسارَ أمامه مسلم بن عقيل بن أبي طالب، فبايعه من أهل الكوفة اثنـا عشـر

ألفًا، فأرسل إليه يزيد بن زيادٍ فقتله، وسار الحسين غير عالم بذلك، فلقيه أوائل خيل ابن زياد، فعدل إلى كربلاء، فجمع إليه ابن زياد عشرين ألف مُقاتل، فقاتلوه، فثبت في ذلك الموقف ثباتًا باهرًا، حتى فني أصحابه، وبقي بمفرده، فحمل عليهم وقتل منهم كثيرًا من شجعانهم، فكثروا عليه حتى أثخنُوهُ بالجراح، لأنه طعن إحدى وثلاثين طعنة، وضُرب أربعا وثلاثين ضربة، وغلب عليه العطش، فحالوا بينه وبين الماء، فسقط إلى الأرض، فحزوا رأسه يوم الجمعة، العاشر من شهر مُحرم سنة إحدى وستين... وكانت ولادته لخمس خلون من شعبان سنة أربعٍ.

قال البوصيري: ما رَعى في الحسن والحُسين حرمتك أيها النبي الكريم، مرءُوسٌ، كجعدة الكِندية في الحسن، وابنُ زيادٍ وأصحابه في الحسين، وقد خان عهدك الرؤساء كيزيد فيهما، لتسببه في قتلهما، على أنهما فازا بالشهادة العظمى، وباءَ هُوَ بالخسران العظيم .. أبدل هؤلاء المرءوسُونَ والرؤساء الودّ والحمية في نصر القرابة ببغضهم وقتالهم، وأظهروا ما تكنُّهُ صدورُهم من الأحقادِ، وقست قلوبُهُم على من بكتْ الأرض والسماءُ عليهم.

روى أن المؤمن إذا ماتَ بكت عليه السّماء والأرض أربعين يومًا .. وإذا كان هذا في مُطلق المؤمن، فما بالكَ بأهل البيت النبوي ؟!.

ثم قال البوصيري:

فابكهم أيها المخاطب مدة دوام استطاعتك، تأسيًا بمحمد ﷺ، ثم بجبريل عليه السلام.. فقد ثبت أن كُلا منهما بكى على فقد الحسين قبل موته لما أطلع الله نبيَّهُ على أنه يُقتل بكربلاء. إن البكاء - وإن كثر - جَزَاءٌ قليلٌ على هذه المصيبة.

وقد ازدادَ كربي، حتى أن كل أرضٍ حللتُ بها تصوَّرتُ أنها الأرضُ التي قُتِلَ فيها الحُسين، وكل يومٍ أصبح عليَّ تصورتُ أنه يومُ عاشوراء الذي قُتِل فيه...

فيا آل البيت المعنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

إن ما عندي من الوفاء بحقكما، والتحسُّر لمصابكما، مع كونه مُلازمًا لي، لا يُفارقُني بسلو، وقد فوضت أمري إلى الله، وفي ذلك تبرؤ من الاعتماد على شيء من الحوْل والقوة..

ثم قال: إن ما حصل من العباسيين في الزوراء من الانتقام من بني أمية، بعد انتزاع الخلافة، خفف ما خامر النفوس من الحُزن من جراءِ المصائب التي حلّت بآل البيت النبوي، باعتداء الأمويين عليهم وإهانتهم، فقد كان كُل طريح منهم مُشبهًا الزق المنقطع الملقى بالأرض، الذي حل رباطه ووكاؤه.

ثم نادى آل البيت النبوي بقوله:

يا آل بيت النبي لقد طبتم أصولاً، ونفوسًا، وأقوالاً، وصفاتٍ، فطاب لي مدْحُكُم كما طابَ رثاؤُكم، وتعداد محاسن موتاكم، فأنا في مقام المدْح كحسانِ بن ثابت، وفي مقام الرثاءِ كالخنساء بنت عُمر بن الشريد، قيل: قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سُليم فنظرت عائشة إليها فوجدت عليها ثوب الحُزن، فأخبرتها بأنه ﷺ نهى عنه، فاعتذرت بأنها لم تعلم بالنهي.. ثم قال: كما سُدتمِ الناس في النسب سدتموهم بزيادة التقى، الذي لا يوجد في غيركم.

٢٥ - مدْحُهُ ﷺ والثَّناءُ عليه
واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتِهِ (ب)

(٣٤٦) وَبأصْحَابِكَ الذينَ هُمُ بَعْـ ... ـدَكَ فينَا الهُدَاةُ والأَوْصياءُ

(٣٤٧) أحسَنُوا بعدَكَ الخلافَةَ في الدِّ ... ـنِ وَكُلٌّ لِمَا تَوَلَّى إزَاءُ

(٣٤٨) أغْنياءٌ نَزَاهَةً، فَقَرَاءُ ... عُلَمَاءٌ أَئِمَّةٌ أُمَرَاءُ

(٣٤٩) زَهَدُوا في الدُّنَا فَمَا عُرِفَ المَيْـ ... ـلُ إلَيْهَا مِنْهُمْ وَلاَ الرَّغْبَاءُ

(٣٥٠) أَرْخَصُوا في الوَغَى نُفُوسَ مُلُوكٍ ... حَارَبُوهَا أَسْلاَبَهَا إغْلاَءُ

(٣٥١) كُلُّهُمْ في أحْكَامِهِ ذُو اجْتِهَادٍ ... وَصَوابٍ وَكُلُّهُمْ أَكْفَاءُ

(٣٥٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْـ ... ـهُ فَأَنَّى يَخْطُو إلَيْهِمُ خَطاءُ

(٣٥٣) جَاءَ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِ قَوْمٍ بِحَقٍّ ... وَعَلَى المَنْهَجِ الحَنيفيِّ جَاءُوا

(٣٥٤) مَا لِمُوسَى وَلاَ لعِيسَى حَوارِيـ ... ـونَ في فَضْلِهِمْ وَلاَ نُقَبَاءُ

(٣٥٥) بأبي بَكرٍ الذي صَحَّ لِلنَّاسِ بِهِ ... في حَيَاتِكَ الاقْتِدَاءُ

كما أقسمُ عليك بأصحابك، الذين دَلُّوا الأُمة على الله، والذين وصَّيتهم بأمور الدين، والمجاهدة عليها، فأحسنوا بعدك الخلافة في الإمارة وغيرها من شئونِ الدّولة الإسلامية، وقد قام كُلٌّ بما أُسْند إليه خير قيام، هؤلاء الأصحاب كانُوا أغنياء من جهة النزاهة والتعفُّف عن جمع المالِ، لأنّ محط أنظارهم، إنّما هو التجرُّد المُطلق عن سائر ما يقطعهم عن الله.

وقد قال النبيُّ ﷺ: (ليس الغنى بكثرة العَرَض – أي المال – وإنَّما الغنى غنى النفس) أي بالله عمَّا سِواهُ.

فقراء: أي غالبهم، بل كُلهم، لأن ذوي الغنى منهم كانُوا خزانًا لله فلا يُعدون إلا بالصورة والاعتبار.

أئمة: أي يُقتدى بهم في الخير.

أُمراءُ: لأن كثيرًا منهمُ تولوا الإمارة في زمن الرَّسول ﷺ، وزمن الخلفاء الراشدين، فقامُوا بحقوقها، ولقد زهدوا في الدُّنيا فلم يُرو عنهمُ أنهمُ مالُوا إليها، أو اهتمُوا بها.

وقد حاربُوا المُلوكَ فأزلوهم، وأرخَصُوا في الحرب نفوسهم، وأسلابهم غالية الأثمان. كانُوا ذوي اجتهادٍ، لتوافر شروط الاجتهاد كلها فيهم جميعًا، وذَوي صوابٍ، وكلهم متكافئون في أصل الصحبة والفضيلة والعلم والاجتهاد، رضي الله عنهم وأمَّنهم من سخطه، وأحلَّهم دارَ كرامته، ورَضُوا عنه، فلم يُخالجهم أي تغيُّر من أي محنةٍ من المحن، لاعتقادهم أن فيها المصلحة الكبرى والعُظمى...

وكيف يصلُ إليهم الخطاء، وكلهم مجتهدون، والمجتهد إذا أخطأ له أجرٌ!

جاءَ إلى النبي ﷺ قومٌ من الصحابة من بعد قومٍ، وهكذا إلى وفاته، وكلهم ناهجوا الصراط المستقيم، فلا يقاسُ نُقباءُ موسى وحواريو عيسى بهم الفضل، ولا يُوازن بينَهم في علو الدرجات.

أقسم البوصيري بالصحابة كلهم جميعًا وإجمالاً ... ثُمَّ شرع يقسم بالعشرة الذين بشروا بالجنة تفصيلا، على حسب درجاتهم فقال: وأقسمُ عليك بأبي بكرٍ الذي صح اقتداءُ الناسِ بهِ في حياتك.

أخرج الشيخان: "اشتد مَرَضُ رسُول الله ﷺ فقال: "مروا أبا بكر فليصلِ

بالنَّاس" فقالتْ عائشةُ: يارسول الله إنه رقيق القلب إذا قام مقامك لم يستطع أن يُصلي بالنَّاس.. فقالَ: "مُري أبا بكرٍ فليُصل بالنَّاس" فعادت، فقال: "مُري أبا بكرٍ فليصل بالنَّاس" الحديث..

وهو دليلٌ على أنه أفضل الصحابة مطلقًا، وأحقُّهم بالخلافة وأولاَهُم بالإمامة.

ويشيرُ البيتُ الثاني إلى ما في الصحيحين عن عمر أنهم لما دَفنُوا رسُول الله ﷺ تخلَّف عليٌ والزبير ومَنْ في بيت فاطمة، وتخلَّف الأنصار بأجمعهم في سقيفة بني ساعدةٍ، واجتمع المُهاجرونَ عند أبي بكرٍ، فقال له عمر: انطلق بنا إلى الأنصار، فذهبوا إليهم، فوقع اضطرابٌ كثير، ثُمَّ خطب أبو بكرٍ فأثنى على الأنصار، ثمَّ بيَّن لهم أن الخلافة لا تكون إلا في قُريش، واحتج بالحديث الصحيح: "الأئمة من قريش" ثم قال: رضيت لكم إما عمر، وإما أبا عبيدة، وأخذ بيدهما، وقال: "بايعُوا من شئتُم منهما"، فكثر اللَّغطُ، وخيفت الفتنة، فبادرَ عمر وقال لأبي بكر: "ابسط يدَك"، فبسطها، فبايعهُ، فتبعه المهاجرون ثم الأنصار فلما بايعُوه وجاءُوا للمسجد، صعد على المنبر، فقام عُمَر، فتكلم قبلهُ: فحمد الله، ثم أثنى على أبي بكر ثم قالَ: "قومُوا فبايعُوه بيْعة عامة، فبايعْهُ النَّاسُ، فخطب أبو بكر وقال: وُليت عليكم ولست بخيركم، فإنْ أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، أطيعُوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعةَ لي عليكم" إلى آخر الأثر.

وفي البيت الثالث إشارة إلى ما كان لأبي بكرٍ الصديق من الفضل في إنقاذ الدين من الوهدة، التي كادَ يقعُ فيها، فقد طاشت عقولهم عند موته ﷺ، فقال أبو بكر: "من كان يعبُد مُحمدًا، فإنَّ محمدًا قد مات ...إلخ...

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ولما اختلفوا في دفنه روَى لهم أبو بكر حديث:

(كل نبي يُدفن في المحل الذي توفي فيه).

واختلفوا في إرْثه، فرَوى لهم أبو بكر حديث:

"نحنُ معاشر الأنبياء لا نورِّثُ، ما تركناه صدقة".

فرجعوا إليه في هذا كله، ولا تنسَ حروب الردة التي كان مآلها تدعيم وتوطيد دعائم الإسلام وتقوية شوكته، كما بسطته كُتُبُ التاريخ.

وفي البيت الرابع التنصيص على أنه صرف مالَهُ في مصارف الخير من أجل رضائه ﷺ، وقد أجمع المُفسرون على أن آية: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١ ﴾ [الليل: ١٧-٢١] "نزلتْ في أبي بكر" وأخرج الترمذي: "ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها ما خلا أبا بكرٍ، فإن لهُ عندنا يدًا، يكافؤهُ الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ قط ما نفعني مالُ أبي بكرٍ". فبكى أبو بكرٍ وقال: هل أنا ومالي إلا لكَ يا رسول الله؟...

وكان ﷺ يقضي في مال أبي بكرٍ، كما يقضي في مَالِ نفسه.

كان ذلك الإنفاق ابتغاءَ مرضاة الله، لم يتبعه بالمن والافتخار، وقد أعطى عَطاءً كثيرًا في وُجُوهِ الخير: منها إعطاؤهُ ثَمَنَ محلِ مسجد رَسُول الله ﷺ... وغير ذلك، مما لم يقطعه حتى توفاهُ الله تعالى.

٢٥- مدْحُهُ ﷺ والثَّناءُ عليه
واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتِهِ (جـ)

(٣٥٦) وَالْمُهَـدِّي يَـوْمَ السَّـقيفَةِ لمـا ... أُرْجِـفَ النَّـاسُ أَنَّـهُ الـدَّأْدَاءُ

(٣٥٧) أَنْقَـذَ الـدِّينَ بَعْـدَ مـا كـانَ للـدِّ ... ـيـنِ عَـلَى كُـلِ كُرْبـةٍ إِشْـفَاءُ

(٣٥٨) أَنفَـقَ المَـال في رِضَـاكَ وَ ... لاَ مَـنٌّ وَأَعْطَـى جَمًّـا وَلاَ إِكْـداءُ

(٣٥٩) وَأبي حَفْـصٍ الـذي أَظْهَـرا ... للهُ بِـهِ الـدِّينَ فَـارْعَوَى الرُّقَبَـاءُ

(٣٦٠) وَالـذي تَقْـرُبُ الأباعِـدُ في ا ... للهِ إِلَيْـهِ وَتبْعُـدُ القُربَـاءُ

(٣٦١) عُمَرُ بنِ الخطَّاب مَنْ قَوْلُهُ الفَصْـ ... ـلُ وَمَنْ حُكْمُهُ السَّـوي السَّـوَاءُ

(٣٦٢) فَـرَّ مِنْـهُ الشَّـيطانُ إِذْ كَـانَ فَـارُو ... قًـا فَلِلنَّـارِ مِـنْ سَـنَاهُ انْـبِرَاءُ

(٣٦٣) وَابْـنِ عَفَّـانَ ذِي الأيـادِي التـى ... طَالَ إِلى المُصطَفَى بِهَـا الإِسْـدَاءُ

(٣٦٤) حَفَرَ البِئْرَ جَهَّزَ الجيْشَ أَهْدَى الْـ ... ـهدْيَ لَمَّـا أَنْ صَـدَّهُ الأعْـداءُ

(٣٦٥) وَأَبَـى أَنْ يَطُـوفَ بالبَيْـتِ إِذْ لَمْ ... يَـدْنُ منْـهُ إِلى النَّبـي فِنَـاءُ

(٣٦٦) فَجَزَتْـهُ عَنْهـا بيْعـةُ رضْـوَا ... نِ يَـدٌ مِـنْ نبيِّـه بَيْضَـاءُ

(٣٦٧) أَدَبٌ عِنْـدَهُ تَضَـاعَفَتْ الأعمـ ... ـالُ بِـالتَّرْكِ حَبَّـذَا الأدَبَـاءُ

ثم يقول البوصيري: وأقسمُ عليك بأبي حفصٍ الذي أعزّ الله به الإسلامُ. فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحًا، وهجرتُهُ نصرًا وأمانته رحمة، وقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل إلى البيت إلى أن أسلم عمر،

فقاتلهم حتى تركونا وخلوا سبيلنا. والذي تُقْرُبُ الأباعِدُ عنه في النّسب لأجل رضاء الله، وتبعدُ عنهُ القرباء إذا لم يوافقوهُ على الدين، فهو ابن الخطَّاب، مَن قوله الفصل بين الحق والباطل، ومن حُكْمُهُ الحكم العادِل. ويكفي في حقه قولُهُ ﷺ:

يا بن الخطاب، والذي نفْسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجاً قط إلاَّ سلكَ فجًا غير فجك"، ولاَ عَجب إذا فرَّ منه الشَّيطان، فإنَّ النورَ العظيم الذي مُنحه ﷺ جدير أن يلاشي النار التي خُلقَ منها الشيطان.

وأقسمُ عليك أيضًا بذي النورين صاحِب النعم التي امتدت إلى المصطفى ﷺ، وقد فَصَّلَ تلك النعم فقالَ:

- حفرالبئر، أي بئر رُومة، التي كانت ليهودي، فاشتراها بعشرين ألف درهمٍ، حينما قدِم النبي ﷺ المدينة، وليس بها ماءٌ عَذبٌ غيرها، فقال ﷺ: "من حَفرَ بئر رُومة، أو اشتراها فلَهُ الجنة" اشتراها عثمان وزَادَ في حَفْرِها.
- وجَهز جيش العُسرة في غزوة تبُوك، وتسمَّى أيضًا غزوة العُسرة، لتعسُّر السَّير فيها من قلة الرُّكُوبِ بالنسبة للجيش، فقد كان العشرة منهمُ يتعاقبون على البعير الواحد من قلة الزادِ والماءِ وشدَّة الحَر حتى كادت أعناقُهُم تنقطع من العطش، وقد جاءَ عُثمان فيها بألف بعيرٍ وسبعين فرسًا، وأتى بعشرة آلاف دينارٍ فوضعها بين يدي رسول الله ﷺ، فجعل يُقلِّبها ويقول: ((ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم)) ويقول: ((غفر الله لك يا عُثمان ما أسررت وما أعلنتَ وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة)).
- كما أهدى الهَدْيَ إلى مكة وأرسَله إليها عام الحُديبية حينَ توجه النبي ﷺ ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه في ذي القعدة سنة ست يُريدُ العُمرة، فمنعتْهُ قريش من دُخُول البيت الحرام، فأرسله ﷺ ليُكلم أشراف قريش في أنْ يرجعوا عن منعه، وأن يُمكنوهُ من دُخولِها، ليؤدي عُمرته، وينحر هديهُ، فلم يمتثلوا

واحتبسوا عثمان عندهم، ولكنهم أباحوا له الطواف، فامتنع حينئذ أن يطوف بالبيْت نظرًا لأن النَّبي ﷺ مُنع منه، فلما احتبسوه بلغه ﷺ. أنه قتل، فدَعَا النَّاس إلى بيعة الرضوانِ فبايعهُم تحت الشجرة على القتال، وكان عُثمان بالطبع غائبًا، فوضع ﷺ يدهُ اليُمنى على اليُسرى وقال:

- "هذه بيعةُ عُثمان"، فخاف المشركُونَ وأرسلوه، وهذا معنى "فجزته عنها" "أي عن هذه الفعلة" وهي امتناعُهُ عن الطّوافِ احتراما للنبي ﷺ بيعة الرضوان. سميت بذلك لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ١٨].

وهو أدَبٌ عظيمٌ، تحقق بالنَّفي، أي بترك الطوافِ، ومن العجب أن يتضاعف ثوابُهُ، فحبذا الأدباءُ، ومن أجلِّهم عُثمان، فقد كان عندهُ من الحياءِ "وهو منشأ الأدَب" ما لم يكن عند غيره.

وقد جَاءَ أن النبي ﷺ استحيا منه، وقال: "عُثمانُ حيٌّ تستحي منْه ملائكة الرحمة".

ولهذا سُمي "ذَا النوريْن".

ووجْهُ تخصيص عُثمانَ بالهدي "مع أن غيره كان معهُ الهدي أيضًا" أن هديهُ وَصَلَ إلى مكة بخلاف هدي غيره، لأن النبي ﷺ وأصحابه، لَّما أيسُوا من دخول مكة ومن إرسالِ هداياهُم، نحروهم بالحُديبية، وعُثمان لغيبته تأخرَ نحرُ هديهِ، حتى حَصُلَ الصلح، فأدخَله إلى مكة، ونحرَهُ بها.

٢٥- مدْحُهُ ﷺ والثَناءُ عليه

واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتهِ (د)

(٣٦٨) وَعَـلِيٍّ صِـنْوِ النَّبـي وَمَـنْ دِيـ ـنُ فُـؤَادِي وِدَادُهُ وَالْـوَلاَءُ

(٣٦٩) وَوَزِيـرِ ابْـن عَمِّـهِ فِي المِعـالِي وَمـنَ الْأَهْـل تُسْـعَدُ الـوُزَرَاءُ

(٣٧٠) لَمْ يَـزِدهُ كَشْـفُ الغِطَـاءِ يقينًـا بَلْ هُوَ الشَّمْسُ مَا عَلَيْهِ غِطَاءُ

(٣٧١) وَبِبـاقِي أَصْـحَابِكَ المظهِـرِ الـتْـ ـتيـبَ فينَـا تَفْضِـيلهُمُ وَالْـوَلاَءُ

(٣٧٢) طَلْحَـةِ الخَـيْرِ المُرْتَضِـيهِ رَفيقًـا وَاحِـدًا يَـوْمَ فَـرَّتْ الرُّفَقَـاءُ

(٣٧٣) وَحَوَارِيِّـكَ الـزُّبَيْر أبي القَـرْ ـمِ الـذي أنْجَبـتْ بِـهِ أَسْـمَاءُ

(٣٧٤) والصَّـفِيين تَـوْأَمِ الفضـلِ سَـعْدٍ وَسَـعيدٍ إنْ عُـدَّتْ الأَصْـفيَاءُ

(٣٧٥) وَابْنَ عَوْفٍ مَنْ هَوَّنَتْ نَفْسَهُ الدُّ نْيَـا بِبَـذْلٍ يُمِـدُّهُ إثْـرَاءُ

(٣٧٦) وَالمُكَنـى أبـا عُبيـدَةَ إذْ يَعْـ ـزِي إلَيْـهِ الأَمَانَـةَ الأُمَنَـاءُ

(٣٧٧) وَبِعَمَّيْـكَ نَـيِّرَيْ فَلَـكِ المَجْـ ـدِ وَكُـلٌّ أَتَـاهُ مِنْـكَ إتَـاءُ

(٣٧٨) وَبِـأُم السِّـبطيْن زَوْج عَـلِيٍّ وَبَنيهَـا وَمَـنْ حَوَتْـهُ العَبَـاءُ

(٣٧٩) وَبِأَزْوَاجِـكَ اللَّـواتِي تشَرَّفْـ ـنَ بِـأَنْ صَـانَهُنَّ مِنْـكَ بِنَـاءُ

وأقسمُ عليكَ بعليٍّ صِنو النبي ﷺ، من حيثُ ذاته "لا من حيث المعجزة التي وقعت له في خيبر، والسابق ذكرُها" والذي ينطوي فؤادي على محبته وولائه، وزيرًا ابن

عمه في المعالي، كما جَاءَ في الحديث أنه ﷺ: لَمَّا خلف عليا على المدينة في غزوة تبُوك قال: يا رسُول الله خلفتني مع النساءِ والصِّبيان! فقال ﷺ: "أما ترضى أن تكونَ مني بمنزلة هارُون من موسى إلاَّ أنَّهُ لا نبي بعدي!".

ومما رواه الترمذي: آخى ﷺ بين الصحابة فجاءَ عليٌّ تدمعُ عيناه فقال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخِ بيني وبين أحدٍ!، فقال ﷺ: "أنت أخي في الدنيا والآخرة".

إنّ عليا ﷺ كالشمس في الإشراق والإضاءة، ولو رُفع الحجاب بينه وبين ربه، ورأى الذات العلية عيانًا، لم يزدَدْ يقينًا، لأن توحيدهُ ويقينه في الله بَلَغَ الغاية في الصحة والثبات، فهو في فضله وعلمه وزهده، كالشمس في الظهورِ والإضاءة، لا يخفى على أحدٍ.

أقسمُ عليكَ بباقي العشرة المُبشرين بالجنَّة الذين أظهر تفضيله ﷺ إيَاهم وتتابُع درجاتهم ومراتبهُم وهم: الخلفاء الراشدُون، وطلحة، والزبير وسعد بنُ أبي وقاصٍ، وسعيد بن زيدٍ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف، وأبو عبيدة بن الجراح.

فالخامسُ – طلحة بن عبد الله القُرشي التميمي...

وسماه النبي ﷺ: طلحة الخير، وطلحة الفياضُ، وطلحة الجوُد، فكانَ غاية فيه، وهو الذي ارتضاه ﷺ رفيقًا لهُ يومَ أُحدٍ، يوم فَرَّت الرُّفقاءَ... وفي الحديث: "لقد رأيتُني يوم أحد وما في الأرض من مخلوق غير جبريل عن يميني، وطلحة عن يساري" اجتمع عليٌّ بن أبي طالب به وبالزبير يوم الجمل، فوعظه، فتأخر عن القتالِ، ووقف في بعض الصفوف، فجاءَه سهمٌ في ركبته فقتله في جُمادى الأخرة سنة ٣٦ هـ عن ٦٤ سنة، ودُفن بالبصرة.

والسادس: الزبيرُ بنَ العوّامِ القرشي:

وهو ابنُ عمَّة رسولِ الله ﷺ "صفية"..

ولَّما اشتد الخوف يومَ الأحزابِ، نَدَبَ النبي ﷺ من يأتيه بخبر بني قريظة، فقال الزبيرُ: أنا، فقال ﷺ: ((إنَّ لكل نبي حواريًا)) أي خاصة من أصحابهِ ((وحواريَّ الزبيرُ)).

حضر فتح مصر مع عمرو بن العاص، وكان من الخارجين على عليّ يوم الجملِ فذكره علي بقول النبي ﷺ. لهُ يومًا ما: ((يا زبيرُ، أتحب عليًّا؟ قالَ: ألا أحب ابن خالي وابن عمتي ومن هو على ديني؟ فقال ﷺ: يا زبيرُ، أما والله لتقاتلنه، وأنتَ ظالمٌ له)) فتذكره، فقال: "والله لا أُقاتل" ثم أدبر راجعًا، فلما وصل وادي السِّباع، وهو محلٌ قريبٌ من البصرة، نامَ، فجاءهُ رجل فقتله ... في جمادى الأولى سنة ٣٦هـ، وعمره ٦٧سنة، وحُمِلَ إلى البصرة فدُفن بها.

هذا طرفٌ من سيرة الزبير بن العوام أبي السيد الجليل عبد الله بن الزبير، الذي جاءَتَ به أسماء بنت أبي بكر الصديق في غاية النجابة والشجاعة، حاصره الحجاج بن يوسف إلى أن قتله، سابع جُمادى الأولى سنة ٧٣هـ، وكان صوَّامًا، يواصل لخمسة عشر يومًا أو أكثر وكان أطلق "لا لحية لَهُ".

والسَّابع: سعدُ بنَ أبي وقَّاص بن مالك القُرشي الزهري:

شهدَ المشاهد كُلها مع رسول الله ﷺ، وهو أوَّل من رمى بسهم في سبيل الله، ورمى يومَ أُحد ألف سهم.

توفي بالعقيق "وهو وادٍ بظاهر المدينة"، ودُفن بالبقيع سنة ٥٥ هـ عن ٧٩ سنة.

والثامنُ: سعيدُ بنُ زيدٍ بنُ عمرو بن نُفيل القُرشي:

توفي سنة ٥٠ عن بضع وسبعين سنة، ودُفن بالمدينة... وهو، وسعدُ بن أبي وقاص من خيرة الأصفياء.

والتاسع: عبد الرَّحمن بن عَوْف بن الحارث القُرشي الزهري:

صحّ أن النبي ﷺ اقتدى به في غزوة تبوك، وصلى وراءَهُ ركعةً من صلاةِ الصبح، وهذه منقبة عظيمة..

وكان كثير الإنفاق في سبيل الله ... فقد رُوي أن جُملة ما أعتقه ثلاثون ألفًا، وقد ساعدهُ على ذلك وعلى غيره كثرةُ المال، الذي اكتسبهُ من التجارة، لأنه كانَ ذا حَظٍ وافرٍ فيها، لدرجة أنّه لو أمسك التراب لصار ذهبًا.

والعاشر: أبو عبيدة عامر الجرَّاح القُرشي الفهري "أمين هذه الأمة":

قال رسول الله ﷺ: "إن لكل أمة أمينًا، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة" لما قدم عمر الشام تلقاه الناسُ فقال: أين أخي أبو عبيدة؟.. فقالُوا: يأتيك السَّاعة.. فأتاهُ على ناقةٍ مخطومةٍ بخطامٍ ليفٍ. فنزل عمرُ عن راحلته واعتنقه وقال للناس: انصرفوا عنّا .. ثم دخل معه إلى بيته فلم يجد فيه سوى سيفه وتُرسه وقوسه وراحلته، فبكى عمر.

وأُقسم عليك بعمَّيك أخوي أبيك حمزة والعبَّاس اللذين أشرفا في سماء المجدِ، واللذين فاضت عليهما الخيراتُ والبركات، وذلك بفضل صلتهما بكَ...

أما حمزةُ "ويُكنى أبا عمارة، ويُلقبُ بأسد الله وأسد رسوله"

فكان شجاعًا أخًا للنبي ﷺ من الرضاع، استشهد بأُحُد نصف شوال سنة ٣ هـ بعد أن قتل ثلاثين كافرًا، قتلهُ وحشي "وهو عبدٌ لعقبة السُّلمي".

وعن ابن مسعود قال: "ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بُكائه على حمزة، وضَعَهُ في القبلة ثمَّ وقف على جِنازِته وبكى، حتى كاد يُغشى عليه وقال: "يا حمزة يا عم رسول الله، يا أسد الله ويا أسدَ رسوله، يا حمزةَ يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكُربات، يا ذابًّا عن وجه رسول الله" وليس في هذا نوْحٌ، بل إخبارٌ بفضله وشمائله وسجاياه رضي الله عنه.

وأما العباسُ: وكنيتُه أبو الفضل:

فكان جليلاً جوَّادًا، ذا رأي وعقل كاملٍ، مُعظمًا بين الصحابة، رئيسًا في قريش قبل الإسلام، وكان النبي ﷺ يثقُ به في أموره كلها، أُسر ببدرٍ وسمعهُ النبي ﷺ يئنُ،

لكونهم شدُّوا وثاقه فلم ينم، فقيل لهُ: ما يُسهرك يا رسول الله؟ قال: أنينُ العباس؟

كان رِدءًا للنبي ﷺ بمكة، يكاتبهُ بأخبار أهلها، وكان يحب القدوم على رسول الله ﷺ، فيكتب إليه: إن بقاءَكَ بمكة خيرٌ لك.

توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ وله من العمر ٨٨ عامًا، وقبرهُ مشهور بالبقيع، وقال له رسول الله ﷺ: "ألا أبشرك يا عم؟! إن من ذريتك الأصفياء والخُلفاء والمهدي".

وأُقسم عليك بأم السبطين الحسن والحسين وهي فاطمة الزّهراء أصغر بناته ﷺ زوجها عليًّا في سنة ٢ هـ بوحي من الله تعالى... والمُرادُ ببنيها الحسنُ والحُسين ومحسِّن وغيرهما، ولم يكن له ﷺ عقب إلا منها، فانتشر نسله من جهة السبطين فقط..

والمُراد بقوله: "ومن حوتْهُ العباءُ" النبي ﷺ وفاطمة وعلي وأبناؤهما، فقد صح أنَّه ﷺ جعل على فاطمة وعلي وابنيهما كساء وقال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي، أذهب عنهم الرّجس، وطهرهم تطهيرًا)).

وأقسم عليك بأزواجك اللواتي تشرَّفن بأن صانهُن عن النار والنقائص بناؤُكَ بهن .. وهن ١١ متفق عليهن:

ستٌ قُرشياتٌ، وأربع عربياتٌ، وإسرائيلية.

أولاهن السيدة خديجة، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم فمن مارية القبطية.

وقد نظم بعضُهم أزواجه اللاتي توفي عنهن بقوله:

تُوفي رسول الله عن تسع نسوة ... إليهن تُعزى المكرمات وتُنسبُ

فعائشةٌ، ميمونة، وصفية ... وحفصة، تتلُوهُن هندٌ وزينبُ

جويرية مع رملة، ثم سودَةٌ ... ثلاث وست نَظْمُهُن مهذَّبُ

٢٥ - مدْحُهُ ﷺ والثَّناءُ عليه
واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتهِ (هـ)

(٣٨٠) الأَمَـانَ الأَمَـانَ، إنَّ فُـؤَادِي ... مِـنْ ذُنُـوبٍ أتيـتُهُن هَـوَاءُ

(٣٨١) قَـدْ تَمَسَّكتُ مِـنْ ودَادِكَ بالحبـل ... الـذي اسْتَمسَكَتْ بِـهِ الشـفعاءُ

(٣٨٢) وَأَبَـى اللهُ أَنْ يَمَسَّـنِي السُّـو ... ءُ بِحَـالٍ وَلِي إليـكَ الْتِجَـاءُ

(٣٨٣) قَـدْ رَجَوْنَـاكَ للأمُـورِ التـي أَبْـ ... ـرَدُها في قلوبِنَـا رَمْضَـاءُ

(٣٨٤) وَأَتَيْنَـا إلَيْـكَ أنْضَـاءَ فَقْـرٍ ... حَمَلَتْنَـا إلى الغِنَـى أَنْضَـاءُ

(٣٨٥) وَانْطَوَتْ في الصُّدُورِ حَاجَاتُ نَفـ ... ـسٍ مَا لَهَا عَنْ نَدَى يَدَيْكَ انْطِوَاءُ

(٣٨٦) فَأَغِثْنَا يَا مَنْ هُـوَ الْغَـوث والغيْـ ... ـثُ إذَا أَجْهَـدَ الْـوَرى الـلأواء

(٣٨٧) وَالجَـوَادُ الـذي بِـهِ تُفْـرَجُ الْغُمَّـ ... ـةُ عَنَّـا وَتُكْشَـفُ الحَوْبَـاءُ

(٣٨٨) يَـا رَحِـيمًا بـالمُؤْمنينَ إذَا مَـا ... ذَهِلَـتْ عَـنْ أَبْنَائِهَـا الرُّحَمَـاءُ

(٣٨٩) يَـا شـفيعًا بـالمؤمنين إذا أشْـ ... ـفَقَ مِـنْ خَـوْفِ ذَنْبِـه الْـبُرَآءُ

(٣٩٠) جُدْ لِعاصٍ وَمَا سِـوَايَ هُـوَ الْعَـا ... صِي وَلكِـنْ تَنكُّـرُي اسـتحياءُ

(٣٩١) وَتَدَارَكْـهُ بالعنَايَـةِ مَـا دا ... مَ لَـهُ بالِـذِّمَامِ مِنْـكَ ذِمَـاءُ

(٣٩٢) أَخَّرَتْـهُ الأعْـمَالُ والْمَـالُ عَـمَّا ... قَـدَّمَ الصَّـالِحونَ والأغْنيـاءُ

(٣٩٣) كُـلُّ يَـوْمٍ ذُنُوبُـهُ صَـاعِدَاتٌ ... وَعَلَيْهَـا أنْفاسُـهُ صُـعَداءُ

(٣٩٤) ألـفَ البِطْنَـةِ المُبطئـةَ السَّـيْرِ ... بـدَارٍ بِهَـا البِطَـانُ بِطـاءُ

(٣٩٥) فبكى ذَنْبَهُ بِقَسْوَةِ قَلْبٍ نَهَتْ الدَّمْعَ فالبُكَاءُ مُكَاءُ

(٣٩٦) وَغَدَا يَعْتَبُ القضاءُ وَلاَ عُذْ رَ لِعاصٍ فيمَا يَسُوقُ الْقَضَاءُ

أَنلني الأمانَ يا رسول الله، من عقاب ما اقترفته من الذُّنوب لأنّ فؤادي بما اكتسبت خالٍ من فهم ما ينفعُني.

ومما يُعطفك عليَّ أني اعتصمت بالحبل الذي استمسكَ به الشفعاء من الأنبياء والعلماء والصالحين، وهو محبتهم لشخصك الكريم، وإذا أوصلتهم محبتك إلى درجة قبول شفاعتهم في الأغيار، فما أحذرُ أن أفوز بشفاعتك بسبب محبتك، ولم يُرد الله كما جرت به عادة كرمه، ودَلَّ عليه ما تفضل به عليك بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ ﴾ [الضحى: ٥]، أن يمسَّني السُّوءُ في أي حال من الأحوال، الدنيوية والأخروية والحالُ أن لي استنادًا عليك، قد رجوتُكَ يا رسول الله للأمور العظيمة، التي أيسرها كالنار المُوقدة المتقدة من شدة خوف المؤاخذة بما كسبت قلوبنا وألسنتنا وجوارحُنَا، وقد أتينا إليك ونحنُ فقراءُ من صالح الأعمال، موجهين آمالنا إلى ساحة كرمك، محمولين على مهازيل، أجهدها طُولُ السَّير وشدَّة الإسراع بها إلى الوُصُول إلى حضرتك العليّة، للوقوف بساحة كرمها، ولتملي بشهودِ إحسانها، وقد استترت في صدورنا رغائبنا النفسية، التي لا تحتجب عن كرم يديك الفياضتين بالندى والإحسان، فأدركنا بشفاعتك يا مَنْ هو الغيثُ للمكروبين والملجأ للمنقطعين، والمطرُ المُريع للمُضطرينَ، إذا ضيق الجدبُ على الخلق حتى أشرفُوا على التلف، ويا من هو الجوَّادُ الأعظم الذي تُزاحُ بفضل رحمته الكروب، وتُغفر بيمن رأفته الذنُوب.

لقد نادى رسول الله ﷺ ربَّهُ نِداءً يتضمن غاية الاستعطاف والاسترحام، بقوله: يا أيُّها الرحيم بالمؤمنين في اليوم الذي تذهلُ فيه الرحماءُ عن أبنائها، ويا أيها الشفيع في غُفران ذُنُوب المذنبين، إذا ارتعدت فرائصُ البرآء ممَّا خامرهم من الصغار فقط.

جُدْ لعاص، وما سواي عاصيا، بل أنا العاصي، ولكني آثرتُ النكرة ولم أقل: جُد لي، أو لنا، وذلك استحياء منكَ أن أذكر لك نفسي بلفظ يدُل عليها بخصوصها، مواجها لك بالتصريح بارتكابها ما نهيتها عنه. وأدركه بُحسن عنايتك، بحق حرمتك، التي أنعم الله بها عليك، ما دام فيه أدنى تعلق واستمساكٍ بك لأنك أكرمُ الكُرماء، وعادةُ الكريم أن كُل مَنْ تعلق به، أظله بعنايته، وشمله برعايته.

لقد أخرت الأعمال السيئة ذلك العاصي، وكذلك المالُ الفاني الذي أمسكه عن صرفه في وجوه الخير، ولم يُجارِ الصالحين، الذين اشتغلوا بحقُوق الله وحقُوق العباد، والأغنياءُ الذين وفقهم الله لإنفاق أموالهم في سبيل الخيرات.

وقد اعترف – رحمه اللهُ – بذُنُوبه، لأن الاعتراف مظلة العفو، وفي الحكم المأثورة: "الاعتراف يهدمُ الاقتراف". قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فقال: كُل يومٍ، أي وليلةٍ "ذنوبه صاعدات" مع ملائكة الليل والنّهار، الذين يرفعون أعمالَ العباد فيهما إلى الله تعالى إظهارًا لعظيم فضل الطائع، وقبيح فعل العاصي، ومن أجلها أنفاسُهُ متواترةٌ ممدودة من شدة الندم والأسف، ذلك لأنّه ألف البطنة المعوقة عن الجهاد في رضائه تعالى في هذه الدّار التي أبطأ البطاءُ فيها، وبسبب هذا العصيان بكى ذنبه، ولكن مع قسوه القلب، التي أغاضت الدّمع وحبسته، فأصبح البكاءُ صوريا، كأنه مكاءٌ "أي صفيرٌ" بالفم، وهو تلميح لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[الأنفال: ٣٥].

"وغدا ذلك العاصي" يُريد نفسهُ ﷺ، بعد ما وقع منهُ من المعاصي والبُكاءُ الصوري، يستند إلى القضاء، ويعتذرُ كأن يقول (وكان أمرُ الله قدرًا مقدورًا)، والحالُ، أَنَّهُ لا عُذرَ للعُصاة فيما، يسُوقُ القضَاءُ، أي من المعاصي، وذلك لأن الله تعالى أجرى عادته الإلهية بترتيب المسبَّبات على أسبابها، ونسبة تلك المسبباتِ إلى المُكلَّف نظرًا

للصورة واختياره فيها وكونه متمكنًا بحسب الظاهر من تركها أو فعلها، فيثاب ويُعاقب بهذا الاعتبار، فيجبُ على المكلف رعاية المقامين، بأن يسند الأفعال إلى فاعلها، "أي الإنسان" – بحسب الصورة – فيستحق المدح أو الذّم، وإلى الله تعالى – حقيقة – من حيثُ عجز العبد عن التخلص منها، هذا هو مذهبُ أهل السُّنة، وبطل مذهب القدرية والجبرية.

obeikandl.com

٢٥ - مدْحُهُ ﷺ والثَّناءُ عليه
واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتِهِ (و)

(٣٩٧) أَوْثَقَتْـهُ مـن الـذُّنُوبِ دُيُـونٌ ... شَـدَّدَتْ في اقْتِضَـائِهَا الغُرَمَـاءُ

(٣٩٨) مَـا لَـهُ حيلـةٌ سِـوَى حِيلَـةِ المُـو ... ثِـقِ إِمَّـا تَوَسُّـلٌ أوْدُعَـاءُ

(٣٩٩) رَاجِيًـا أَنْ تَعُـودَ أَعْمَالُـهُ السُّـو ... ءُ بِغُفْـرَانِ اللهِ وَهْـيَ هَبَـاءُ

(٤٠٠) أَوْ تُـرَى سَـيِّئَاته حَسَـنَاتٍ ... فَيُقَـالُ اسْـتَحَالَتْ الصَّـهْبَاءُ

(٤٠١) كُلُّ أَمْـرٍ تُعْنِي بِـهِ تُقْلَـبُ الأعـ ... ـيَانُ فيـهِ وَتُعْجَـبُ الْبُصَـرَاءَ

(٤٠٢) رُب عَـيْنٍ تَفَلْـتَ في مَائهـا المِلْـ ... ـح فَأَضْحَى وَهُوَ الفُرَاتُ الرَّوَاءُ

(٤٠٣) آهِ مِمَّـا جَنَيْـتُ إِنْ كَـانَ يُغْنِـي ... أَلِـفٌ مِـنْ عَظِـيمِ ذَنْـبٍ وَهَـاءُ

(٤٠٤) أَرْتَجِي التَّوبَةَ النصُـوحَ وَفي القَلْـ ... ـبِ نِفَـاقٌ وَفي اللِّسَـانِ رِيَـاءُ

(٤٠٥) وَمَتَـى يسْـتقيمُ قلبـي وَلِلجِسْـ ... ـمِ اعْوِجَاجٌ مِنْ كِـبْرَتِي وَانْحِنَـاءُ

(٤٠٦) كُنْتُ في نَوْمَـةِ الشبابِ فـما اسـ ... ـتيْقَظْتُ إلاَّ وَلِـمَّتي شَـمْطَاءُ

(٤٠٧) وَتَمَادَيْـتُ أَقْتَفِـي أَثَـرَ القَـوْ ... مِ فَطَالَـتْ مَسَـافَةٌ وَاقْتِفَـاءُ

(٤٠٨) فَـوَرَا السَّـائِرِينَ وَهُـوَ أمـامي ... سُـبُلٌ وَعْـرَةٌ وَأَرْضٌ عَـرَاءُ

(٤٠٩) حَمِـدَ المُـدْلِجُونَ غِـبَّ سُرَاهُـمْ ... وَكفَـى مَـنْ تَخَلَّـفَ الإبْطَـاءُ

(٤١٠) رِحْلَـةٌ لَمْ يَـزَلْ يُفَنِّـدُني الصَّيْـ ... ـف إِذَا مَـا نَوَيْتُهَـا وَالشـتَاءُ

(٤١١) يَتَّقِـي حَـرَّ وَجْهِـي الحـرَّ وَالـبَرْ ... دَ وَقَـدْ عَـزَّ مِـنْ لَظـى الاتقَـاءُ

(٤١٢) ضِقْتُ ذَرْعًا مِمَّا جَنيْتُ فَيَوْمي قَمْطَرِيرٌ وَلَيْلَتي دَرْعَاءُ

(٤١٣) وَتَذَكَّرْتُ رَحْمَةَ اللهِ فَالْبِشْـ ـرُ لِوَجْهي أَنَّي أَنْتَحي تِلْقَاءُ

(٤١٤) فألحَّ الرَّجَاءُ والخَوْفُ بِالقَلْبِ وَلِلخَوْفِ وَالرَّجَا إحفاءُ

(٤١٥) صَاحِ لاَ تَأْسَ إنْ ضَعُفْتَ عَنِ الطـ ـعَةِ وَاسْتَأْثَرَتْ بِهَا الأَقْوِيَاءُ

(٤١٦) إنَّ للهِ رَحْمَةً وَأَحَقُّ النَّا سِ مِنْهُ بِالرَّحْمَةِ الضُّعَفَاءُ

(٤١٧) فَابْقَ في العُرْجِ عِنْدَ مُنْقَلَبِ الذَّوْدِ ففي العَوْدِ تَسْبِقُ الْعَرْجَاءُ

لقد قيدته ديون من ذنوبه المتعلقة بالخالق والخلق، وحبسته في الدُّنيا عن التخلص من تبعاتها، وفي الآخرة عن مقامه الكريم، ديُونٌ ألح الدائنون في طلب أدائها، وليس لمثله حيلة سوى حيلة الأسر من التوسُّل إلى الله، والتقرُّبِ بالأعمال الصَّالحة، أو التضرُّع إليه، أن يكف عنه الغرماء، حال كونه مؤملاً أن تعودَ سيئاته حسناتٍ، وهنالك يُقال: "استحالت الخَمْر من الخمرية والنجاسة إلى الخلية والطهارة".

ثم توجه إليه ﷺ وقال: كُلُّ أمرٍ توجه عنايتك إليه، تُقلَّب فيه الأعيان والأجرامُ، ويستوجبُ تعجُّب أُولي البصائر والأبصار، فقد بصقت في بئر أريس، وماؤها ملحٌ أُجاجٌ، فأصبح وهو عذب فُراتٌ، سائغ شرابُهُ.

ثم يقولُ البوصيري: إني أتوجعُ من أجل ما اقترفت من الذنوب، إن كان التوجعُ مُفيدًا، لأنه يشعر بالتوبة، والتوبة تغسل وتهدمُ الحوبة، وأرجو أن أوفقَ إلى التوبة النصوح، ولكن أنَّي يفيدُني هذا الترجي، وفي القلب نفاقٌ من حيثُ العمل، وفي اللسانِ رياءٌ "أي نظرٌ إلى الخلق" وحتى يستقيم قلبي، وقد اشتعل الرأسُ شيبًا واعوجَّ جسمي، وانحنت قامتي؟!.

والاستقامة في هذا الوقت بعيدةٌ بخلاف أيامِ الشَّبابِ، فإنَّ العودَ رَطبٌ، والقلب لين، وإنما أخرت التوبة إلى هذا الزمن، لأني كُنتُ في نومة الشباب، التي تكثرُ فيها الغَفَلاتُ، فما استيقظت من تلك الغفلة إلا وأنا أشمط "أي عجوز" فانبعثتُ مقتفيًا أثر القوم الصالحين، السابقين إلى المراتب العليّة، فعجزت عن إدراكهم، وطال عليَّ ما بيني وبينهُم، وأصبح ما وراءهُم أمامي من طرق وعْرة يعسرُ سُلُوكُها، ومن أرض عراءٍ يصعب قطعُها، أولئكَ هم الذينَ فازوا وحمدوا عاقبة أمرهم، وكفى من تخلف عنهم في سيرهم، التأني في السَّيْر، المفوِّت لإدراكِ مراتبهم العليّة، التي وصَلوا إليها.

إن أولئكَ الصالحين، رَحَلوا رحلة عظيمة عن مواطن الشهوات والشبُهاتِ، وأردْتُ أن أقتفي أثرَهُم فيها، فثبط همتي الصيفُ والشتاءُ، لِمَا كُنتُ أخشاهُ من تأثير الحر والبرد، والحالُ أن من الصعب اتقاءُ نارِ جهنم، لأني مُتلبسٌ بما يؤول بي إليها، ففي صدري حرج مما جنيت، لذلك كان يومي شديدًا، وليلتي مظلمة، ولكن خففَ عني ذلك أني تذكرتُ قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلازمني البشر والارتياح، وتنازع في قلبي الرجاء والخوفُ، لما بينَ مقتضاها من التضاد، وقد خاطب نفسه بقوله: لا تحزن حُزنا يؤدي للقنوط من رحمة الله، المنهي عنه، إذا آنست من نفسك الضعف في الطاعة، وانفرد بها الأقوياء، أولو العزائم الماضية، لأن لله رحمةٌ، وأحق عبادهِ بها الضعفاء الذينَ لا يعولونَ على أعمالهم، ولا يغترون بأحوالهم، مع قيامهم بما لابُد منهُ، وكذلك إخلاصُهُم لله في عبادتهم.

وفي الحديث القدسي: "أنا عند المنكسرة قلوبُهُم من أجلي"... ثُمَّ استدل على أن الضعيفَ قد يحصل له ما لا يحصُل للقوي، بمثالٍ ظاهر من الوُجُود، فقالَ: فابق في الضُّعفاءِ، المُشبهين بالعُرُج، عند منقلب الذودِ، ورجوعه إلى صاحبه، ففي العَوْدِ تسبقَ العرْجَاءُ، أي فتأخرها أوجب لها السَّبق، فكذلك تأخرُك عن كثير من الطاعات، رُبما أوجب لك سبق الكثير منها، لأنَّهُ قد يصحبكَ الإخلاصُ والانكسار، ويصحبه العجب والافتخار ...

وقد رُوي عن ابن عطاءٍ ﷺ قوله: **"رُب معصية أورثت ذُلاً وانكسارًا خيرٌ من طاعة أورثت عِزًا واستكبارًا"**.

ثم عاد البوصيري إلى الضَّراعة، بأن ناداهُ ﷺ بقوله:

يا نبي الهُدى، استغثت استغاثة امرئ مُضطر، أختبر بها ضَعفَ همته، وفُتور عزيمته، لأنهُ يدَّعي الحُب، الباعثَ على العمل الصالح، وهو يأمُرُ بالسُّوءِ، فمن يتكفل له بصدقِ رغبته وعزيمته في الرجوعِ إلى الله بالتوبة والعمل الصَّالح؟.

obeikandl.com

٢٥ - مدْحُهُ ﷺ والثَّناءُ عليه
واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتهِ (ز)

(٤١٨) لاَ تَقُلْ حَاسِدًا لغيْرِكَ: هذا ... أَثْمَرَتْ نَخْلُهُ وَنَخْلي عَفَاءُ

(٤١٩) وَأْتِ بالمُسْتَطَاعِ مِنْ عَمَلِ الخَيْرِ ... فَقَدْ يُسْقِطُ الثِّمَارَ الإِتَاءُ

(٤٢٠) وَبِحُبِّ النَّبي فَابْغِ رِضَا ا ... لله فَفِي حُبِّهِ الرِّضَا وَالجِبَاءُ

(٤٢١) يَا نَبِي الهدَى اسْتِغاثَةَ مَلْهُو ... فٍ أَضَرَّتْ بِحَالِهِ الحَوْبَاءُ

(٤٢٢) يَدَّعي الحبَّ وَهُوَ يَأْمُرُ بالسُّو ... ءِ وَمَنْ لِي أَنْ تَصْدُقَ الرَّغْبَاءُ

(٤٢٣) أيُّ حُبٍّ يصحُّ مِنْهُ وَطَرْفي ... لِلكَرَى وَاصِلٌ وَطَيْفُكَ رَاءُ

(٤٢٤) لَيْت شعري أَذَاكَ مِنْ عظمِ ذَنْبٍ ... أمْ حُظُوظُ المُتَيَّمينَ حُظَاءُ

(٤٢٥) إنْ يَكُنْ عظمُ زَلَّتي حَجَبَ رُؤْيَا ... كَ فَقَدْ عَزَّ دَاءُ قَلْبي الدَّوَاءُ

(٤٢٦) كَيْفَ يَصْدَا بِالذَّنْبِ قَلْبٌ مُحِبٌّ ... وَلَه ذِكْرُكَ الجميلُ جِلاَءُ

(٤٢٧) هَذِهِ عِلَّتي وَأَنْتَ طبيبي ... لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ في الْقَلْبِ دَاءُ

(٤٢٨) وَمِنَ الفَوْزِ أَنْ أَبُثَّكَ شكوى ... هِيَ شَكْوى إليْكَ وَهْيَ اقتضاءُ

(٤٢٩) ضُمِّنَتْها مَدَائِحَ مُسْتَطابٌ ... فيكَ مِنْهَا المديحُ والإصْغَاءُ

(٤٣٠) قَلَّمَا حَاوَلَتْ مَديحَكَ إلاَّ ... سَاعَدَتْهَا مِيمٌ وَدَالٌ وَحَاءُ

(٤٣١) حَقَّ لي فيكَ أَنْ أُسَاجِلَ قَوْمًا ... سَلَّمَتْ مِنْهُمُ لِدَلْوي الدِّلاَءُ

(٤٣٢) إنَّ لي غَيْرَةً وَقَدْ زَاحَمَتْنِي ... في مَعَانِي مَدِيحِكَ الشُّعَرَاءُ

(٤٣٣) وَلِقَلْبِـــي فِيـــكَ الْغُلُـــوُّ وَأَنِّي لِلسَّـــانِي فِي مَـــدْحِكَ الْغُلَـــوَاءُ

ثم قال: وكيف تصدق محبتي وأنا مواصل للكسل والنوم؟

ليتني علمتُ أن عَدَم خطور خيالك بقلبي ناشيءٌ من جسامة ذنبي؟

أم أنصباء المُحبينَ مراتب ودرجات؟ فبعضُهم يحظى بالقرب من غير كثرة عملٍ، وبعضهم لا يحظى به إلا بعد كثرة العمل، فإن كانت جسامة هفوتي هي التي حجبت رؤياكَ عني، فقد عزَّ الدواءُ لدَاءِ قلبي، بل عدم الدواء له، فلا يوجد له شفاءٌ، لأنَّه لا يوجدُ إلا من جنابك الكريم.

ثم قال: كيف يسود قلبُ ذلك المحب بسبب الذنب الذي ارتكبه؟ ولَهُ جلاءٌ من ذكرك الجميل؟

ثم قال: إن حيرتي إزَاءَ حرماني من خيالك وعدم اهتدائي إلى الباعث المُفضي لذلك، هي علتي، وأنت طبيبي العالم بها، الماهرُ في إزالتها، فليس يخفى عليك داءٌ في القلبِ.

وإنما رفعت إليك قصتي، لأن من الظفر لمثلي أن أنشرُ شكواي، ولكنها مني لنفسي إليْكَ لا إلى غيرك، أي أنشُرُ وأظهر بين يديك في ضمن مدحي لك ما كاد يهلكني من عظم ذنوبي، رجاءَ أن تمنحني نفحة ونظرة، تُزيل عني كل وصمة، وتوجبُ لي منك كل رحمة، ففي الشكوى روح الطلب من كرمك الواسع وفيضك الهامع، وقد أودعت هذه الشكوى المدائح السنية، التي يُستطابُ فيكَ منها مَدْحك والإصغاء إليه، وقل أن يستصعب عليَّ ما أردْتُهُ من مدحك، لأني ما حاولته في حالٍ من الأحوال، إلا ساعدني مدحُكَ على أكمل ما ينبغي، ولهذه المساعدة حق لي أن أساجل الشعراءَ، الذين مدحُوك، وأفاخرُهم حتى يذعنوا لي فيه، وحق أن تتولّد في الحمية التي تُيسر لي التبريز، على من يريدُ أن يُزاحمني من الشعراءِ في مدحك، نعم إن في قلبي إسْراعًا في مدحِكَ، ولكن كيف يتسنى للساني الإسراع، لولا إسعافُكَ إياي، وإمدادُك بما يمهد لي سبيل التَّفوق عليهم؟.

٢٥ - مدْحُهُ ﷺ والثَّناءُ عليه
واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتِهِ (ح)

(٤٣٤) فَأَثِبْ خَاطِرًا بِلَذِّ لَهُ مَدْ ... حُكَ عِلْمًا بِأَنَّهُ اللاَّءُ

(٤٣٥) حَاكَ مِنْ صَنْعَةِ القَرِيضِ بُرُودًا ... لَكَ لَمْ تَحْكُ وَشْيَهَا صَنْعَاءُ

(٤٣٦) أَعْجَزَ الدُّرَّ نَظْمُهُ فَاسْتَوَتْ فِيـ ... ـهِ الْيَدَانِ الصَّنَاعُ وَالخِرْقَاءُ

(٤٣٧) فَارْضَهُ أَفْصَحَ امْرِىءٍ نَطَقَ الضَّا ... دَ فَقَامَتْ تَغَارُ مِنْهَا الظَّاءُ

(٤٣٨) أَبِذِكْرِ الآيَاتِ أُوفِيكَ مَدْحًا ... أَيْنَ مِنِّي وَأَيْنَ مِنْهَا الوَفَاءُ

(٤٣٩) أَمْ أُمَارِي بِهِنَّ قَوْمَ نَبِيٍّ ... سَاءَ مَا ظَنَّهُ بِيَ الأَغْبِيَاءُ

(٤٤٠) وَلَكَ الأُمَّةُ التِي غَبِطَتْهَا ... بِكَ لَمَّا أَتَيْتَهَا الأَنْبِيَاءُ

(٤٤١) لَمْ نَخَفْ بَعْدَكَ الضَّلاَلَ وَفِينَا ... وَارِثُو نُورِ هَدْيِكَ العُلَمَاءُ

(٤٤٢) فَانْقَضَتْ آيُ الأَنْبِيَاءِ وَآيَا ... تُكَ فِي النَّاسِ مَا لَهُنَّ انقِضَاءُ

(٤٤٣) والكَرَامَاتُ مِنْهُمْ مُعْجِزَاتٌ ... حَازَهَا مِنْ تُرَاثِكَ الأَوْلِيَاءُ

(٤٤٤) إِنَّ مِنْ مُعْجِزَاتِكَ العَجْزَ عَنْ وَصْـ ... ـفِكَ إِذْ لاَ يَحُدُّهُ الإِحْصَاءُ

(٤٤٥) كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ الكَلاَمُ سَجَايَا ... كَ وَهَلْ تَنْزِحُ البِحَارَ الرِّكَاءُ

(٤٤٦) لَيْسَ مِنْ غَايَةٍ لِوَصْفِكَ أَبْغِيـ ... ـهَا وَلِلْقَوْلِ غَايَةٌ وَانْتِهَاءُ

(٤٤٧) إِنَّمَا فَضْلُكَ الزَّمَانُ وَآيَا ... تُكَ فِيهِ نَعُدُّهُ الآنَاءُ

(٤٤٨) لَمْ أُطِلْ فِي تَعْدَادِ مَدْحِكَ نُطْقِي ... وَمُرَادِي بِذَلِكَ اسْتِقْصَاءُ

(٤٤٩) غَـيْرَ أَنِّي ظَمـآنُ وَجْـدٍ وَمَـا لي بِقَلِيـلٍ مِـنَ الـوُرُودِ ارْتِـوَاءُ

بسببِ صدقِ محبتي أثب قلبًا يلتذ بمدحك، بما يؤهله للتفوق على مسابقيه، فأنت أكرم من جازى محبيه، لأنهُ يعلمُ أن مدحك ينيرُ قلوب المادحين ويساعدهم على إيراد المعاني البديعيَّة، والأساليب العجيبة، من أجل ذلك، نسج ذلك الخاطر من الأشعار الباهرة، ما لا تشبهُهُ البرودُ الصنعائية الفاخرة.

وقد فاق اللآلئ النفيسة نظمُهُ الذي اشتمل على أرفع الأساليب وأسمى المعاني، فتساوى إزاءَهُ القريحتان: الوقادة والخامدة؟ المُعبر عنهما بقوله: الصُّناع والخرقاء، فما أجمل أن تقبلهُ، يا خيرَ من نطق بالضادِ، فقامتْ تغَارُ منها الظاءُ، وتتمنى أن تكونَ مثلها، لأنها لم تفُز بما فازَتْ به الضادُ من تعذر النطق بها على غير العرب، وتعذر نهاية النطقِ على غيره ﷺ، مع أن مخرج الظاء قريب من مخرج الضاد .. ثم خاطب البوصيري النبي ﷺ بما معناهُ: إن التماسي لرضاك بهذه القصيدة ليس مبنيًا على أنها تضمنت ما ينبغي إيراده من مقام مدحك، لكنه مبني على الطمع في كرمك العظيم، فإن ذلك لا يتيسَّرُ، إلاَّ لمن أحاط بمقامك، ولذلك قال: "وأين مني؟" أي وفائي بذلك "وأين منها؟" أي وفاؤها بذلك، وكم أذكر تلك الآيات الباهرة بقصد أن أوفي بها حقك، أو بقصد أن أجادِل بها مادحيك.

ومن ظن بي واحدًا منها فهو غبي لا يفهم، فلك الآيات التي لا تحصى، ولكَ الأمة التي هي خيرُ الأمم الجديرة بأن يغبطها الأنبياء بإرسالك إليها، فإنهمُ وإن كانوا من أمتك، لكنّهم وَدّوا أن يكونوا من أتباعك، الذين بُعثتَ فيهم، ليفوزُوا بغاية الفخر، كما فازت بذلك أمتك، التي بعثت فيها.

أما عن قوله: "ولَكَ الأمَّة التي غبطك بها الأنبياء" لأنهم تمنوا أن يكون لهم أُمَّة مثل أمته، ولكنه صاغَ العبارة في قالب القلب لأنَّهُ من المحُسِّناتِ البديعية، فالمُرادُ:

غبطتك بها الأنبياءُ، لأنّها من خير الأمم بنص القُرآن الكريم:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إننا لم نخش بعد عصر حياتك أن نحيدَ عن الصراط المستقيم، والحالُ أن فينا أعلام الهداية والرشاد، وهُم وارثُو نور هديك، وهم العلماءُ أهل السنة والجماعة، وهم أتباعُ أبي الحسن الأشعري، وأبي منصُور الماتريدي رضي الله عنهما، وعُلماءُ الفروع كالأئمة الأربعة، وعُلماءَ التَّصوف كالغزالي وأضرابه.

وبسبب أن في أمتكَ وارثو هَدْيك، انقضت معجزاتُ الأنبياء، لانتساخ شرائعهم بموْتهم، ومُعجزاتُك ليس لها انتهاءٌ، إذْ في كل حينٍ، يقع لخواصِ أمتك من خوارق العادات، ما يدل على تعظيم قدْرِك العظيم، وإن الكرامات التي تظهر على أيْدي أوليائكَ، هي في الحقيقة معجزاتٌ لك، ورثُوها منْكَ.

ولكون معجزاتك لا انقضاءَ لها، كان من معجزاتك: عجزُ النَّاسِ جميعًا عن الإحاطة بأوصافك، التي اختصَّكَ الله بها، لأنَّ العدَّ لا يتناول صفاتك السَّنية.

وكيف يستوعب الكلام ما فيك من الأخلاق الكريمة، والفضائل والأوصاف البالغة أقصى الكمال، التي لا حد لها؟

وكما أنّ الرّكاء لا تنزحُ البحار، كذلك العبارات لا تستوعبُ ما حُليت به من الكمالات، فليس لأوصافك السَّنية غايةٌ ونهايةٌ أبتغيها، مع أن القول له غايةٌ ونهايةٌ.

ففضلكَ كالزمان، ومعجزاتُكَ كالأزمانِ، والسَّاعات واللحظات. فكما أن هذه لا تُحد فكذلك تلكَ.

ولستُ بإطالتي في هذه القصيدة في تعداد محاسِنك، راميًا إلى حصر أوصافك العليّة، مُخلفًا ما قدمته من أنَّها لا تعد، وإنما مُرادي بتلك الإطالة، بردُ الغليل، وشفاء العليل، لأنّ ما يُخامرُني من شدة الشّوق إلى سماعِ تلك الأوصاف، لا يرويه الورود القليل، أي الماءِ القليل. فإن إطالتي إنّما هي لطلب مزيدٍ من الارتواء، لا لطلب الحصرِ والإحصاء.

٢٥- مدْحُهُ ﷺ والثَّناءُ عليه
واستعطافُهُ والتماسُ شفاعتهِ (ط)

(٤٥٠) سَلامٌ عَلَيْكَ تَرَى مِنَ اللهِ ... وَتَبْقَى بِهِ لَكَ البَأوَاءُ

(٤٥١) وَسَلامٌ عَلَيْكَ مِنْكَ فَمَا غَيْـ ... ـرُكَ مِنْهُ لَكَ السَّلامُ كِفَاءُ

(٤٥٢) وَسَلامٌ مِنْ كُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ ... لِتَحْيَا بِذِكْرِكَ الأَمْلاَءُ

(٤٥٣) وَصَلاَةٌ كَالْمِسْكِ تَحْمِلُهُ منـ ... ـي شَمَالٌ إِلَيْكَ أَوْ نَكْبَاءُ

(٤٥٤) وَسَلامٌ عَلَى ضَرِيحِكَ تَخْضَـ ... ـلُّ بِهِ مِنْهُ تُرْبَةٌ وَعْسَاءُ

(٤٥٥) وَثَنَاءٌ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْ نَجْـ ... ـوَايَ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ ثَرَاءُ

(٤٥٦) مَا أَقَامَ الصَّلاَةَ مَنْ عَبَدَا اللهَ وَقَامَتْ بِرَبِّهَا الأَشْيَاءُ

أختمُ قصيدتي بما يتعيَّنْ عليَّ من الدُّعاء لكَ بالصلاة والسلام امتثالاً لقوله تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فأقولُ على سبيل الطلب: سلامٌ عليكَ من الله، يتبعُ بعضُهُ بعضًا، ويستوجب فخرَكَ، لأن في تسليم أمتك عليك مع التكرار والدّوام، زيادة في شرفك وفخرك، وأشفع سَلامَ الله عليك بطلب سلامك على نفسك، إذ لا يكافئُكَ سلام مخلوق سواكَ، فما غيرُك السلامُ منه كفاءٌ لك، وأُتبعُ سلامك على نفسك بطلب سلام عامٍ من كل ما خلق الله من ناطقٍ وغير ناطق، وإنما جئت بهذا العُمُوم لتحيا بذكرك الأملاءُ (جمع ملأ)، وأتبع السلام بطلب الصلاة من الله ومنك ومن كل مخلوق "كما مرَّ في السلام" بالصلاة التي

تُشابه المسْكَ في الطيب، والنفع البالغ تحمله إليك شمال أو نكباءٌ ليتعطر الوُجُودُ بعبيره.

وأتبع ذلك بطلب السلام على البقعة المشرفة، وإن ثنائي عليك قام مقام التصدُّق الذي ينبغي تقديمه على مناجاة الرسُول ﷺ، ويُسن لمن يريدُ زيارته ﷺ أنْ يقدم بين يدي زيارته صدقة.

obeikandl.com